من مكتبة المصحف

نساء

أنزل الله فيهن قرآناً

الجزء الثاني

تأليف
د. عبد الرحمن عميره

منشورات
دار اللواء للنشر والتوزيع
الرياض

قال الرسول ـ ﷺ :

« النساء شقائق الرجال » .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قلنا فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب : إن التاريخ يحدثنا أن العربى كان شديد الإحترام للمرأة ، كثير الحدب عليها ، ويعطف عليها ويحرص على صيانتها.

وكان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبة بذكر زوجاتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم ، وكانوا يطلبون منهن أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم غمرات الحرب فى سبيل مجدهم ومفاخرتهم ، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر عنترة العبسى :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المقدم

وكانت المرأة تدخل حلبة القتال جنباً إلى جنب مع فرسان قومها وتشارك برمحها وسيفها فى قتال الأعداء وتشتيت جموعهم . ولقد سجل التاريخ على صفحته الكثير من البطولات لنساء مقاتلات .

من ذلك ما حدث فى إحدى المعارك الطاحنة التى دارت بين المسلمين وجموع الروم على أرض الشام حيث كان قائد معركة اليرموك خالد بن الوليد (رضي الله عنه) يرقب فارساً طويلاً ملثماً لا يظهر منه إلا الحدق ، وتلوح عليه شمائل الفروسية وهو يرتدى ثياباً سوداء ، وقد حزم وسطه بعمامة خضراء سحبها على صدره وتركها من خلفه ، وكان يتقدم صفوف الرجال وكأنه النار التى تتخلل العشب اليابس فتقضى عليه .

فقال خالد : من هذا الفارس ...؟ وأيم الله إنه لفارس شجاع .

وظل يرقب هجماته على عساكر الروم كالنار المحرقة فيزعزع كتـائبهم ، ويحطـم مواكبهم ، حتى خرج مـن بـين صفوفهـم وسـنانه يقطـر دمـاً بعـد أن قتـل رجـالا وجندل أبطالاً ، واخترق الموت غير خائف ولا وجل .

فقال رافع بن عميرة رضى الله عنه : ليس هذا الفارس إلا خالد بن الوليد .

ولكن خالد بن الوليد ظهر بعد قليل أمام رافع ، فتعجـب رافـع ، واقـترب مـن خالد وقال:

إذن من الفارس الذى يتقدم مواكب الجند ويبذل نفسه ومهجته . ؟

فقال خالد : والله إنى أشد إنكاراً منكم له ، ولقد أعجبنى مـا ظهـر منـه ومـن شمائله .

فقال رافـع : أيها الأمير إنه منغمس فى عسكر الروم يطعن يميناً وشمالاً .

فقال خالد : يا معشر المسلمين احملوا بـأجمعكم وسـاعدوا هـذا المدافـع عـن ديـن الله.

وعلى الفور اندفع المسلمون وعلى رأسهم خالد كتلة واحدة واقـتربوا مـن الفـارس فوجوده لا يزال شعلة من النار والخيل فى أثره ، وكلما لحقت به الروم لوى عليهـم وجندل فرسانهم ، فحمل خالد ومن معه حتى انجلت المعركة عن نصر المسلمين .

وحين عاد الفارس المخضب بالدماء إلى صفوف المسـلمين صـاح خـالد بـن الوليـد قائلا :

لله درك من فارس بذل مهجته فـى سـبيل الله ، وأظهـر شـجاعته علـى الأعـداء اكشف لنا عن لثامـــك .

لكن الفارس ظل صامتاً ، ولوى عنان فرسه و لم يرد على خالد بن الوليـد فصـاح رجل من القوم :

أيها الرجل الكريم أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيماً .

لكن الفارس لم يرد عليهم بكلمة واحدة ، بل همز فرسه وابتعد عنهم .

وهنا اندفع خالد وراءه وصاح به :

" ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبى بفعلك من أنت ... ؟ "

وحين شعر الفارس بالحاح خالد عليه ، خاطبه بلسان التأنيث من تحت اللثام قائلا :

" إننى يا أمير لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور " .

فقال لها من أنت ... ؟

قالت : أنا خولة بنت الأزور ، وإنى كنت مع بنات العرب حتى أتانى الساعى وأخبرنى أن ضرار أخى قد وقع أسيراً فى قبضة الأعداء ، فركبت إليكم وفعلت ما فعلت .

فتعجب خالد من قولها وفعلها وأكبر شجاعتها وإخلاصها لأخيها .

و لم تهدأ خوله حتى أرسل خالد كوكبة من الفرسان ترافقهم خوله ، وتم فك أسر أخيها بن الأزور . بعد معركة ضارية مع الأعداء .

وفى وقعة "صحورا" فى بلاد الشام وقعت خولة أسيرة فى قبضة الأعداء مع بعض النسوة . ولكنها وهى فى معسكر الأعداء جمعت هؤلاء النسوة المأسورات وقامت فيهن خطيبة وهى تقول :

يا بنات حمير ، وبقية تبع أترضين لأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولادكن عبيداً لأهل الروم ، فأين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدث بها عنكن أحياء العرب

ومحاضر الحضر ، وإنى أراكن بمعزل عـن ذلـك ، وإنـى أرى القتـل النـازل أهـون عليكن من هذا الهوان ، وما نزل بكن من خدمة هؤلاء العلوج ...؟؟

فقالت لها عفـراء بنـت غفـار الحميرية : صدقـت وا لله يـا بنـت الأزور ونحـن فـى الشجاعة كما ذكرت ، وفى البراعة كما وصفت ، غير أن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ، ولقد دهمنا العدو على حين غفلة ، وما نحن إلا كـالغنم بـدون سلاح . ؟؟

فقالت خولة : يا بنات الإسلام خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ونحمـل بهـا على هؤلاء اللئام فلعل ا لله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب .

فقالت عفراء : وا لله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرت .

ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام ، وصاحت صيحـة واحـدة وألقـت خولة على عاتقها عموداً ومن ورائها عفراء وبقية النسـاء وقـالت لهـن خولـة : " لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكنَّ كالحلقـة الدائـرة ولا تفرقـن فتملكـن فيقـع بكـن التشتيت ، وحطمهن رماح القوم واكسرن سيوفهم . وهجمـت خولـة وهجمـت النساء من ورائها وقاتلن قتالاً شـديداً حتـى تمكـنَّ مـن الخـروج وفـك الأثـر . ولقـد أنشدت النساء بعد وقعة الصحـــــورا :

نحن بنـــات تبـــع وحميـــــر	وحربنـا فى القوم ليـس ينكـــر
لأننا فى الحــرب نـار تسعَّـــر	اليـوم تسقون العـذاب الأكبـر

وإذا كنا نذكر بكل الفخر ما فعلته النساء المسلمات فى ساحة الوغى فـلا ننسـى بعض النسوة اللاتـى سـارعن إلى الإسـلام ، وتحملـن ألم التنكيـل والتعذيـب حتـى فارق البعض الحياة منهن أسماء أم عمار بن ياسر وأهل بيتها ولقـد مـرَّ عليهـم رسـول ا لله(ﷺ) وهم يعذبون فقال : " صبراً آل ياسر فموعدكـم الجنـة " ومنهـن نسـيبة بنت كعب الأنصارية (أم عمارة) التى قاتلت فى غـزوة أحـد ودافعـت عـن رسـول ا لله (ﷺ) وظلت تتلقى عن النبى الضربات وتستقبل الطعنات بصدرها وكتفها دون

أن تفارق مكانها ، وقد قال الرسول ﴿ﷺ﴾ : " ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى " .

ومنهن فاطمة بنت الخطاب التى دخل عليها أخيها عمر بن الخطاب فقال لها ولزوجها ما هذه الهيمنة التى سمعتها ...؟

فقالا له : ما سمعت شيئاً ، وكانت فاطمة قد أخفت صحيفة من القرآن تحت فخذها .

فقال : بلى وا لله لقد أخبرت أنكما تبعتما محمداً فى دينه ، ثم هجم على صهره سعيد ليبطش به ، وحين هرعت فاطمة لتبعده عن زوجها ، ضربها ضربة قوية فشج رأسها وسال الدم على وجهها . وهنا قالت له أخته :

نعم لقد أسلمنا وآمنا با لله ورسوله فاصنع ما بدا لك ، وحين رأى عمر أخته بهذا الوضع والدم يسيل على وجهها ندم على ما صنع وأحس بتسرعه وتهوره ثم تناول الصحيفة بعد أن تطهر فقرأ قول ا لله تعالى :

﴿ طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلا تذكرة لمن يخشى (٣) تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى (٤) الرحمن على العرش استوى (٥) ﴾[1]

فأسلم وحسن إسلامه .

ونحن فى هذا الكتاب : نقدم المرأة التى ترفض الذهب والفضة مهراً لها ليكون مهرها الإسلام .

والمرأة : التى تولت الملك والحكم ، ولكن زهدت فيهما وعادت إلى طبيعتها لتكون أما ترعى الطفولة وتصنع الرجولة ، وتشارك فى الدعوة إلى دين ا لله.

---

(١) سورة طه الآيات من ١-٥

والمـــــرأة : التى استقر الإسلام فى قلبهـا فـتركت الـزوج والولـد ، وفـارقت الأهل والأحباب وهاجرت بدينها إلى ربها ، وفرت إلى مولاها مقتدية بذلك بالصفوة المختارة من الأنبياء والرسل عند قولتهم : ﴿ **إنى مهاجر إلى ربى** ﴾[1] .

إننا فى هذا الكتاب نقدم المرأة كما أبان عن خلقتها ربنا **بقوله تعالى :**

﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلـق منهـا زوجهـا وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾[2] .

والمرأة التى هى آية من آيات الله فى **قوله تعالى :**

﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسـكنوا إليهـا وجعـل بينكـم مودة ورحمة** ﴾[3]

وبذلك ندرك حكمة الخالق جلا وعلا فى خلق كل من الجنسين علـى نحـو يجعلـه موافقـاً للآخـر ، ملبيـاً لحاجتـه الفطريـة ، بحيـث يجـد عنـده الراحـة والطمأنينـة والاستقرار ويجدان فى اجتماعهما السكن والاكتفاء والمودة والرحمة .

والمرأة التى هى لباس وستر ، ووقاية وحفظ ومستودع من الحنان والحـب قـال الله تعالى : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[4] .

واللباس ساتر وواق ، وكذلك هذه الصلة بين الزوجين تستر كلاً منهمـا وتقيـه .والمرأة التى أرشدنا الله إليها بقوله :

﴿ **نساؤكم حـرث لكم فأتـوا حرثكـم أنـى شئتـم وقدمـوا لأنفسـكم واتقـوا الله** ﴾[5] .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٦
(٢) سورة النســـاء آية رقم ١
(٣) سورة الــــروم آية رقم ٢١
(٤) سورة البقـــرة آية رقم ١٨٧
(٥) سورة البقـــرة آية رقم ٢٢٣

إن نظام الأسرة فى الاسلام هو النظام الطبيعى الذى يتولى حماية الطفولة وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها فى بيت يحاط بسياج من الألفة والمحبة وتبنى قواعده من شرع الاسلام ومبادئه .

إن وظيفة الإنسان هى أكبر وظيفة لأنه خليفة الله فى أرضه

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[1]

ودوره فى الأرض أضخم دور ، لأنه يقوم على تنفيذ شرع الله ، وإخلاص العبودية له ، وتفرده بالعبادة والوحدانية .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[2]

من هنا امتدت طفولته فترة أطول ليحسن إعداده وتدريبه لتلك المهمة المتفردة ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أى طفل لحيوان آخر ، وكانت الاسرة المستقرة الهادئة ألزم للنظام الأنسانى ، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره فى هذه الحياة .

وأخيراً إن الآيات التى نزلت فى هؤلاء النسوة المؤمنات تتناول بعض أحكام الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة والحضانة . ولكن هذه الأحكام لم نذكرها مجردة كما اعتاد الناس أن يجدوها فى كتب الفقه ومصطلحات المشرعين . ولكنها ذكرت فى جو يشعر القلب البشرى أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلهى للحياة البشرية بعامة ، ودور المرأة فى تكوين الأسرة ، وإمتداد نسل الخليقة ودورها المعطاء فى ذلك كله بصفة خاصة .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ا.د عبد الرحمن عميره

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٣٠

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢

قال الله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

سورة الأحزاب آية رقم ٥٠

ساقط من أصل المصدر

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها .

والدها الحارث بن حزن ، من قبيلة هوازن أصحاب معركة حنين التى نزل فيها قول الله تعالى مخاطباً جماعة المسلمين :

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾[1] .

وأمها هند بنت عوف من كريمات الأسر من قريش ، ويتحدث التاريخ عن زفافها للحارث بأنه كان يوماً مشهوداً بين القبائل نحرت فيه كرائم الإبل وتسابق إليه علية القوم وشهدت ساحته فرسان القبيلتين . على صهوات خيولهم بسواعدهم المفتولة ، وسيوفهم المرهفة . وبراعتهم فى اقتناص الطيور الجارحة ، واصطياد الحيوانات الشاردة .

ثم عاش العروسين عيشة سعيدة ، وحياة هنيئة رغيدة ، ورزقهما الله بالعديد من البنات الصبوحات الوجه المعتدلات القد .

ومن هؤلاء البنات أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ﷺ) ووالد حبر الأمة عبد الله بن عباس - الذى دعى له الرسول بقوله : " اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل "[2]

ولبابة الصغرى : زوج الوليد بن المغيرة المخزومى الذى نزل فيه قول الله تعالى :

---

(١) سورة التوبة آية رقم د ٢

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ١٣٨ واحمد بن حنبل فى المسند ١ :٣٦٦

﴿ **ذرنى ومــن خلقـت وحيـــداً (١١) وجعلـت لـه مـالاً ممـدوداً (١٢) وبنـين شهوداً (١٣) ومهدت له تمهيداً (١٤) ثم يطمع أن أزيـــد (١٥) كـلا إنـه كـان لآياتنـا عنيداً (١٦)** ﴾[1] .

ومن أولاده : خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، والقائد الذى لم يهـزم قـط . والذى قال عنه رسول الله ﴿ﷺ﴾:

" خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين " .

وعصماء بنت الحارث كانت تحت أُبى بن خلف الجمحى الذى كان يلقى رسول الله ﴿ﷺ﴾ بمكة فيقول : يا محمد إن عندى فرساً أعلفه كل يـوم فرقـاً مـن ذرة أقتلـك عليه . فيقول رسول الله ﴿ﷺ﴾ :

" بل أنا أقتلك إن شاء الله "[2] .

فلما كانت غزوة أحد والرسول ﴿ﷺ﴾ جالساً فى الشِّعْب أدركـه أبـى بـن خلـف وهو يقول : أين محمد ... ؟ لا نجوتُ إن نجوتَ .

فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : " دعـــوه "

فلما دنا منه تناول رسول الله ﴿ﷺ﴾ الحربة من الحرث بن الصِّمَّة ثم استقبله فطعنه طعنة مال منها عن فرسه مراراً .

فلما رجع إلى قريش احتقن الدم من هذه الطعنة فقال : قتلنى والله محمد .

قالوا له : ما بك من بأس .

قال : " إنه كان قال لى بمكة : أنا أقتلك . فوالله لو بصق علـىَّ لقتلنـى . فمـات عدو الله بمكان يقال له سرف بالقرب من بيت الله الحرام " [3] .

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١١-١٦

(٢) راجع سيرة إبن هشام عند الحديث عن غزوة أحد

(٣) المصدر السابق

وعزة بنت الحارث التى تزوجت زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى . يصمت التاريخ فلا يذكرهما من قريب أو بعيد .

هؤلاء النسوة هن أخوات شقيقات لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث وأمهن هند بنت عوف أما أخواتها لأمها فمنهن :

أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبى طالب (ﷺ) والتى هاجرت مع زوجها جعفر بن أبى طالب ، ثم هاجرت إلى المدينة فلما قتل جعفر بن أبى طالب فى غزوة مؤته تزوجها أبو بكر الصديق (ﷺ) فلما مات تزوجها على بن أبى طالب كرم الله وجهه [1].

ولقد كانت أم المؤمنين تسمى بَرَّةَ فسماها رسول الله (ﷺ) ميمونة ويحدثنا التاريخ عنها حديثاً عجيباً لقد نشأت على بطاح مكة ، وترعرعت على ثراها الطيب ، وهى واحدة من عشر أخوات نشأن بين أحضان أم أحسنت تربيتهن وقامت بتدريبهن على حسن معاملة الزوج ، واجابة مطالبه ، وتجميل الحياة فى عينيه . وأب عرف بالشفقة والحدب عليهن .

ولقد تزوجت ميمونة قبل الرسول (ﷺ) حويطب بن عبد العزى . ولكننا نقف حيارى أمام حويطب هذا . لأن المصادر التى بين أيدينا لا تسرف فى ذكره ولا تقدم لنا ما يجلى حياته وسيرته .

فهل كان فارساً من فرسان قريش ... ؟

هل عرفته ساحات الحرب وحلبات الصراع...؟

هل كان تاجراً من تجار قريش يقطع دائما إلى أرض الشام رحلة الشتاء والصيف التى حدثنا عنها كتاب الله تعالى بقوله :

---

(١) راجع الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ٤ : ١٩١٦

﴿رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤)﴾[1]

أم أنه كان راعياً للإبل والغنم وسايساً للخيل ، ومدرباً لها يسرح فى الصحراء الممتدة ، وتراه دائما عند تجمع العشب ، ووجود المياه فى الغدران... ؟ لا ندرى عن ذلك شيئا...؟

وكيف كانت حياة ميمونه معه ...هل كانت سعيدة ، هل أنجبت له البنين والبنات ، وهل انفصل عنها إلى غيرها ، أم ترى جاءه أجله ، وفارقت روحه جسده ، وغيب تحت الثرى ... ؟

إن ذاكرة التاريخ لا تعى من ذلك شيئاً ، ولكن هذه الذاكرة التى تجاهلت الكثير من حياة ميمونة ، تعود إليها لتسجل نبضات قلبها وهى تستمع لأخبار الرسول «ﷺ» وهو يأمر بأخراج يهود بنى النضير من جزيرة العرب . والتى نزل فيهم قول ا لله تعالى :

﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتم حصونهم من ا لله فأتاهم ا لله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾[2] .

وأخذت ميمونة تسترجع هذه الأحداث أحداث هزيمة بنى النضير وإجلائهم وهم أصحاب الحصون العالية ، والقوة الضاربة ، والأدعياء الذين يقولون نحن أبناء ا لله وأحباؤه . كيف تغلبت عليهم هذه القوة المحدودة من أتباع محمد ؟

وماذا فعل محمد لهؤلاء الرجال حتى أصبحوا القوة الضاربة التى لا تقهر ...؟ والفئة المؤمنة فوق سطح الكرة الأرضية التى لا يمكن أن ينال منها ...؟

---

(١) سورة قريش الآيات من ٢ : ٤

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢

واسترجعت ميمونة أن هؤلاء الرجال هم الفئة الغالبة : لأن النصر من عند ا لله . ولقد وعدهم ربهم بذلك بقوله :

﴿ إن تنصروا ا لله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1]

ولقد أنجز ا لله لهم وعده فتمكنوا من قهر بني النضير ، وإخراجهم جميعاً من جزيرة العرب .

وما كادت ميمونه تنفض يدها من هذه التأملات ـ حتى سمعت طرقاً شديداً على الباب ، وسارعت لفتحه فرأت أمامها أختها من أمها أسماء بنت عميس تزف لها بشرى جديدة لانتصار المسلمين فى معركة خيبر ضد فئة أخرى باغية من هؤلاء اليهود . وتابعت حديثها أسماء فقالت لميمونه ـ بعد أن تم النصر وفتحت حصون خيبر أبوابها أمام القوة الضاربة للمسلمين تقدمت أمراة سلام ابن مشكم بشاة مصلية مسمومة لرسول ا لله (ﷺ) فلما وضعتها بين يديه تناول الزراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ـ ومعه بشر بن البراء ابن معرور قد أخذ منها كما أخذ الرسول (ﷺ) أما بشر فا ستساغها وأما رسول ا لله(ﷺ) فلفظها ثم قال : " إن العظم يخبرنى أنه مسموم " .

ثم دعاها فأعترفت ، فقال : " ما حملك على ذلك ...؟ " .

قالت : قد بلغت من قومى ما لم يخف عليك . فقلت : إن كان كذاباً استرحت منه . وإن كان نبياً فسيخبر ...

قال : فتجاوز عنها رسول ا لله (ﷺ).

وفرحت ميمونة بنجاة الرسول (ﷺ) وتذكرت قول ا لله تعالى فى هؤلاء اليهود :

---

(١) سورة محمد آية رقم ٧

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكان يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون (٧٩) ﴾[١] .

ثم قالت ميمونة لأسماء ثم ماذا يا أسماء ...؟

قالت أسماء : وقبل أن يتحرك جيش المسلمين لحصار خيبر . جاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح سألهم ما تريدون ...؟

قالوا : نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه بنى فوقع فى نفسه ذكر النبى فأقبل بغنمه حتى وقف أمام الرسول ﴿ﷺ﴾ فقال : إلى ما تدعو...؟

قال : أدعو الى الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله .

فقال العبد : فماذا يكون لى إن شهدت بذلك وآمنت بالله ... ؟

قال رسول الله عليه السلام : " الجنـــــــة " .

فاسلم العبد . ثم قال : يانبى الله إن هذه الغنم عندى أمانة . فكيف أردها لصاحبها ...؟

قال عليه السلام : اخرجها من عسكرنا وارمها بالحصا . فإن الله سيؤدى عنك أمانتك بايصالها لصاحبها .

ففعل العبد فعادت الغنم إلى سيدها وعرف أن غلامه قد أسلم .

ثم قالت أسماء : ثم إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ أعطى راية الجيش لأبى بكر الصديق ﴿ﷺ﴾ وأمره بمقاتله اليهود حتى تستسلم حصونهم .

---

(١) سورة المائدة الآيتان ٧٨ ـ ٧٩

وفى اليوم الثانى أعطى راية الجيش لعمر بن الخطاب ﴿ﷺ﴾ فقاتلهم قتالاً شديداً ولكنهم لم يستسلموا .

وفى اليوم الثالث : أخذ الراية على بن أبى طالب ، وبعد القتال المرير ـ كان الفتح وكان النصر . واستشهد العبد الأسود فحمله المسلمون إلى معسكرهم فادخل على رسول الله ﴿ﷺ﴾ فنظر إليه ثم قال لأصحابه :

" لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير . ولقد كان الإسلام فى قلبه حقاً وقد رأيت عند رأسه اثنين من الحور العين " [1] .

لقد كانت ميمونه تستمع إلى حديث أسماء وكلها آذان صاغية ، ولقد بهرها حقا أعمال هؤلاء العمالقة الصيد من جيش الإسلام ، وأصبحت تواقة لرؤية الرسول ﴿ﷺ﴾ الذى أستطاع فى فترة وجيزة من عمر الزمن أن ينقل هؤلاء الرجال رعاة الإبل والشاة الى سادة وقادة مدنوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للإنسان .

ولكن كيف يتحقق لها ذلك ... ؟

ومتى وكيف تظفر بهذه الأمنية ...؟

وهل هناك من وسيلة تنقلها إلى رحاب خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ...؟ أم أن ذلك من أحلام اليقظة ، ومن هواجس النفس ... ؟

واستيقظت ميمونة ـ رضى الله عنها ـ من تخيلاتها تلك وكأنها قد وضعت يدها على الوسيلة التى تنقلها إلى أحب الناس إلى قلبها وقلوب المسلمين أجمعين .

ولم تكن تلك الوسيلة سوى الهجرة إلى يثرب موطن الرسول الكريم .

ولما لا : لقد سبقتها إلى هذه الهجرة أم كلثوم بنت عتبة ـ رضى الله عنها ـ والكثيرات غيرها من المسلمات اللاتى فررن بدينهن إلى الله .

---

(١) راجع البداية والنهاية ٤ : ١٩٠ ـ ١٩١

و لم يغب عن ميمونه ـ رضى ا لله عنها ـ أن أختها أسماء قد هـاجرت مـع زوجهـا إلى أرض الحبشة ثم عادت وهاجرت مرة أخرى إلى المدينة .

إذن لابد من الهجرة تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ **ففروا إلى ا لله** ﴾[1]

ولكنها وسط هذه الرؤى والتأملات استدركت ميمونة أن أختها أسمـاء هـاجرت الهجرتين و لم يعترض عليها أحد لأنها كانت فى صحبة زوجها .

ولكنها هى ـ لا زوج لها ـ فهل يسمح لها رجال القبيلة وشيوخها بـالهجرة قاطعـة تلك الفيافى والقفار بمفردها حتى تصل إلى المدينة ...؟

لا : إن دون ذلك خرط القتاد .

وما أن وصلت ميمونة ـ رضى ا لله عنها ـ إلى ذلـك حتـى كـان الكـرى يداعـب أجفانها ويسلمها إلى نوم عميق .

ومرت الأيام بطيئة متثاقلة ـ على ميمونة ـ رضـى ا لله عنهـا ـ بعـد أن علمـت أن رسول ا لله (ﷺ) بعد فتحه خيبر قد عاد إلى المدينـة مـرة أخـرى . و لم يبـق أمامهـا إلا التعرف على أخبار الرسول (ﷺ) وصحبه الكرام من الركبان الظـاعنين مـن المدينـة ، أو الذاهبين إليها .

وأراد ا لله سبحانه وتعالى ألا يطول انتظارها ، وفى يوم ليـس كمثلـه يـوم طـرق آذانها صوت المنادى مطالباً أهل مكة بالخروج إلى الشعاب وقمـم الجبـال ـ وتخليتهـا لمحمد وصحبه تنفيذا للشروط التى أقرها الطرفان فى صلح الحديبية .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٠

عمرة القضاء والزواج من ميمونة

قال موسى بن عقبة عن الزهرى : ثم خرج رسول الله (ﷺ) من العام القابل من عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صده المشركون عن المسجد الحرام حتى إذا بلغ يأجج "مكان قريب من مكة" وضعوا فيه كل أدوات الحرب ما عدا سلاح الراكب : السيف وبعث رسول الله (ﷺ) بين يديه - جعفر بن أبى طالب يأمر أصحابه أن : اكشفوا عن المناكب واسعوا فى الطواف ليرى المشركون جلدهم وقوتهم ، وكان المشركون قد جمعوا الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله (ﷺ) وهم يطوفون بالبيت ، والصحابى الجليل عبد الله بن رواحة يرتجز بين يدى الرسول (ﷺ) متوشحاً بالسيف وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله	أنا الشهيد أنه رسوله
قد أنزل الرحمن فى تنزيله	فى صحفٍ تتلى على رسوله
فاليوم نضربكم على تأويله	كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله	ويذهلُ الخليل عن خليله

وتغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله (ﷺ) غيظاً وحنقاً ، ونفاسة وحسداً . وخرجوا خارج مكة فى مكان يسمى "الخندمة" وفى هذا عرض على الرسول (ﷺ) الزواج من ميمونة - فقام جعفر بن أبى طالب فخطبها عليه . فجعلت ميمونة أمرها إلى العباس بن عبد المطلب زوج أختها أم الفضل بنت الحارث.[1]

فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ورسول الله (ﷺ) فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباده فصاح حويطب بن عبد العزى :

---

(١) راجع البداية والنهاية وسيرة ابن هشام عند الحديث عن عمرة القضاء

" يا محمد نناشدك ا لله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث " .

فقال سعد بن عبادة : كذبت لا أم لـك ليس بـأرضك ولا أرض آبـائك وا لله لا يخرج[1].

عندها خشي رسول ا لله (ﷺ) احتدام الموقف ، وقد يتطور إلى قتال فقال مخاطباً سهيلاً وحويطباً :

" إني قد نكحت فيكم امـرأة فـلا يضركـم أن أمكـث حتى أدخـل بهـا ونصنـع الطعام فنأكل وتأكلون معنا " .

فقالا : نناشدك ا لله والعقد إلا خرجت عنا .

عندها أمر رسول ا لله (ﷺ)أبا رافع فـأذن بـالرحيل ، وركـب رسـول ا لله حتـى نزل ببطن سرف وأقام المسلمون معه .

وعندما أستقر المقام بالرسول (ﷺ)كلف الصحابى الجليـل أن يحمـل لـه ميمونـة ـ وبقى بسرف حتى قدمت عليه . فزوجها العباس له ، وأصدقه عنها أربعمائة درهـم. وذكر السهيلى : أنه لما أنتهت إليها خطبة رسول ا لله (ﷺ) وهى راكبة بعـيراً قـالت : الجمل وما عليه لرسول ا لله (ﷺ).

وفيها نزلت الآية :

﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسـها للنبىَ إن أراد النبـى أن يسـتنكحها خالصـة لك من دون المؤمنين ﴾[2].

وغردت الدنيا ، وأشرقت بصبح جديد بنـور ربهـا حيـث انضمـت إلى أمهـات المؤمنـين العـابدة السـاجدة ، والقانتـة الصادقـة ، والصـابرة الخاشـعة ميمونـة بنـت الحارث رضوان ا لله عليها وعلى أمهات المؤمنين أجمعين .

---

(١) المصدر السابق ٤ : ٢٢٣

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٠

وتقول ميمونة : فى ليلة من الليالى ورسول ا لله (ﷺ) ينام فى حجرتى قام فى هجعة الليل فأسبغ الوضوء ثم قام يناجى ربه قائلاً :

" اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن .

ولك الحمد أنت قيوم السموات ومن فيهن .

ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ومحمد حق ...

اللهم لك أسلمت وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت " .

فكانت ميمونة - رضى ا لله عنها - تقول هذه الكلمات كلما هجع الليل ولعب الكرى بأجفان اليقظان .

وكان صلوات ا لله وسلامه عليه - يعلمها أن تقول إذا استيقظت من نومها :

" اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، واجعل لى نورا " .

وكثيراً ما كان عبد ا لله بن عباس - رضى ا لله عنهما - يأتى فى حجرة خالته ميمونة - ليقدم الوضوء إلى رسول ا لله (ﷺ) ويتفقه فى أمور دينه فجلس حتى خرج الرسول (ﷺ) وركب دابته - واردف عبد ا لله بن عباس خلفه - وكان عبدا لله كثير السؤال فى القليل والكثير - يريد أن يعرف ما قل وما كثر من أمور الوحى المتتابع على رسول ا لله (ﷺ) وما يتعلق بشئون الدين والدنيا . عندها قال له الرسول (ﷺ) :

" يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك ا لله بهن ...؟ " .

فقال : بلى يا رسول ا لله ...

قال : " احفـظ ا لله يحفظـك ، احفـظ ا لله تجـده تجـاهك ــ تعـرف إلى ا لله فـي الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سـألت فأسـال ا لله ، وإذا اسـتعنت فاسـتعن بـا لله جف القلم بما هو كائن ، ولو اجتمع الخلق علـى أن يعطـوك شـيئاً لم يكتبـه ا لله عـز وجل لك لم يقدروا عليه .

ولو اجتمع الخلق على أن يمنعوك شيئاً كتبه ا لله عز وجل لك لم يقدروا عليه .

فاعمل لله تعالى بالرضى في اليقين ، واعلم أن فـي الصـبر علـى مـا تكـره خـيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً " [1].

ولقد عاشت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين مع رسول ا لله (ﷺ) أجمـل أيامهـا ــ وأسعد لحظات حياتها ـ وفي يوم ليس كمثله يوم والرسول (ﷺ) في حجرة عائشة ــ نعى الناعى ـ خاتم الأنبياء وآخر المرسـلين ــ إلى الأمـة الإسـلامية واسـتقبلت بقلـوب مكلومة ، ونفوس مفجوعة قول ا لله تعالى :

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر ا لله شيئاً وسيجزى ا لله الشاكرين ﴾[2]

وعاشت ميمونة بعد وفاة رسول ا لله (ﷺ)

عابـــــــــــدة ساجـــــــــــدة .

قانتـــــــــــــة خاشعـــــــــــــة .

تعبد ربها ، وتبتهل إلى مولاها ، أن يعينها على أداء ما فرضها ا لله عليها ، فإذا جاء أجلها ، جعلها في زمرة عبادها الصالحين ، وأوليائه الذين قال فيهم :

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى القيامة ٥٩ وأحمد بن حنبل فى المسند ١ : ٢٩٣ ، ٣٠٣

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٤٤

﴿ ألا إن أوليـــاء ا لله لا خوف عليهـم ولا هـم يحزنـون الذيـن آمنـوا وكـانوا يتقون (٦٣) هم البشرى فيالحياة الدنيا وفي الآخـرة لا تبديـل لكلمـات ا لله ذلـك هو الفوز العظيم (٦٤) ﴾[1] .

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان (ﷺ) خرجـت ميمونـة بنـت الحـارث مـع ابـن أختها عبد ا لله بن عباس ـ رضى ا لله عنهما ـ للحـج فلمـا أدت المناسـك وتم حجهـا اشتكت ، فأوصت أن تدفن فى مكان القبة التى أعرس فيها رسول ا لله (ﷺ) بهـا فـى سرف . وأن تكون حجرتها داراً للعلم ومدرسة للفقه ومأوى للراغبين . ثـم فـارقت روحها جسدها . فصلى عليها عبد ا لله بن عباس وجماعـة المسـلمين واسـتقرت كمـا وعد ا لله عباده الصالحين ﴿ **فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾[2] .

(١) سورة يونس الآيتان ٦٣ ـ ٦٤

(٢) سورة القمر آية رقم ٥٥

تذييل ...

قضية المهر من القضايا التى اهتم الاسلام بها اهتماماً كبيراً وأولاها عناية خاصة قال الله تعالى : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾[1].

قال أبوعبيد يعنى عن طيب نفس بالفريضة التى فرضها الله تعالى على عباده

وقيل النحلة - تعنى الهبة لأن كل واحد من الزوجين يستمتع بصاحبه ، وجعل المهر عطية للمرأة بغير عوض لقوله تعالى : ﴿ **وآتوهن أجورهن بالمعروف** ﴾[2]

أى مهورهن .

ولقد جاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله إنى تزوجت .

قال عليه السلام : ما أصدقتها ...؟ أى ما أعطيتها مهراً ...؟

قال : وزن نواة ذهباً .

فقال ﷺ : " بارك الله لك أو لم بشاة " .

واتفق الفقهاء على أن المهر واجب شرعاً فى كل عقد نكاح على الزوج لزوجته بمجرد عقد النكاح لقوله تعالى :

﴿ **وأن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** ﴾[3]

---

(١) سورة النساء آية رقم ٤

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٥

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٤

فإذا لم يذكر المهر فى مجلس العقد ، وجب مهر المثل ، لما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سئل عن امرأة مات عنها زوجها قبل أن يدخل بها و لم يكن قد سمى لها مهراً فى عقد النكاح فقال :

" لم أسمع فى هذا شيئاً عن رسول الله (ﷺ) ولكن أجتهد برأيى فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان ـ أرى أن لها مهر نسائها لا وكس ولا شطط " .

فقام الصحابى الجليل معقل بن يسار وقال : أشهد أن رسول الله (ﷺ) قضى فى بروغ بنت واشق الأشجعية مثل قضائك

ثم قام رجال من قبيلة أشجع وقالوا : إنا نشهد بمثل شهادته

ففرح عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فرحاً لم يفرحه مثله فى الاسلام لموافقة قضائه قضاء رسول الله (ﷺ) .

ويرى الكثير من الفقهاء أن فى المهر حقاً لله تعالى . فلا يملك الزوجان نفيه باتفاقهما ، فدل ذلك أن فى المهر حقاً لله تعالى لا يملكان اسقاطه .

ويؤيد هذا أن بعض الفقهاء من أتباع أبى حنيفة اشترط حداً أدنى فى المهر وجعل هذا الحد حقاً للشرع لا يجوز النزول عنه بتسمية ما هو أقل منه ، فإذا سمى أقل منه وجب إبلاغه إلى الحد الأدنى(1) .

لهذا يستحب أن يسمى المهر فى عقد النكاح .

قال ابن قدامة الحنبلى : ويستحب أن لا يعرى النكاح عن تسمية الصداق .

وقال الفقيه الرملى الشافعى : "وتسن تسميته " أى تسمية المهر .

---

(1) راجع الهداية وفتح القدير ٢ : ٤٣٤ - ٤٣٧

ولقد كان النبى (ﷺ) يزوج بناته وغيرهن ويتزوج هو ، فلم يكن يخلى ذلك من مهر . وقال (ﷺ) للذى زوجه المرأة الموهوبة : " التمس ولو خاتماً من حديد " [1] .

فلما لم يجد شيئاً : زوجه إياها بما معه من القرآن .

وأيضاً فإن تسمية المهر فى عقد النكاح أقطع للنزاع وللخلاف فيه .

ويرى ابن قدامه : أن كل ما كان مالاً جاز أن يكون مهراً لقوله تعالى :

﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾[2].

وإذا كان ذلك فهل يجوز أن يكون تعليم العلم ، والفقه فى دين الله وتعليم القرآن للزوجة مهراً ...؟

لقد اختلف العلماء فى ذلك .

فعند الشافعية وبعض المذاهب الأخرى جواز ذلك إلتزاماً بالسنة واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى جعله صداقاً .

فقال فى موضع : أكرهه .

وقال فى موضع آخر : لا بأس به . وهوأن يتزوجها على أن يعلمها سوراً من القرآن الكريم .

وحجة هذه الرواية الأخيرة ورود جواز ذلك فى السنة النبوية الشريفة كما فى حديث سهل بن سعد الساعدى . وفيه قول النبى (ﷺ) :

" زوجتكها بما معك من القرآن " .

ووجه الرواية الأولى فى عدم الجواز : أن الفروج لا تستباح إلا بالأموال تجعل مهراً فى عقود النكاح قال الله تعالى :

---

(١) متفق عليه

(٢) سورة النساء آية ٢٤

﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾(١)

وقال تعالى :

﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾(٢)

والطول هو المال ، ولأن تعليم القرآن لا يجوز أن يقع إلا قربة لفاعله فلا يصح أن يكون صداقاً كالصوم والصلاة .

والصورة التى يرضاها الاسلام للعلاقة بين الرجال الأحرار وغير الحرائر ، وهى ذاتها الصورة التى رضيتها من قبل من زواج الحرائر :

فأولاً : يجب أن يكون مؤمنات .

﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾

وثانياً : يجب أن يعطين أجورهن فريضة لهن لا لسادتهن . فهذا حقهن الخالص .

﴿ فآتوهن أجورهن ﴾

وثالثاً : يجب أن تكون هذه الأجور فى صورة صداق ، وأن يكون الاستمتاع بهن فى صورة نكاح لا مخادنة ولا سفاح ، والمخادنة أن تكون لواحد ، والسفاح أن تكون لكل واحد .

﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾(٣)

---

(١) سورة النساء آية ٢٤

(٢) سورة النساء آية ٢٥

(٣) سورة المائدة آية ٥ .

أقل المهر ...

يكاد يكون اختلاف بين الفقهاء فى تحديد مقدار أقل المهر ومن الأدلة على ذلك:

١ـ ما يروى من أحاديث فى أقل المهر لا يثبت منها شـئ قـال الإمـام ابـن حجـر العسقلانى : " وقد وردت أحاديث فى أقل الصداق لا يثبت منها شئ " [١] .

٢ـ ما رواه جابر رضى ا لله عنه عن الرسول ﴿ﷺ﴾ أنه قال : " لو أن رجـلا اعطـى امرأة صداقاً ملء يديه طعاماً ، كانت له حلالاً " [٢].

وعن أبى داود بمعناه " أى لو تزوج امرأة وجعل مهرها ملء يديه طعامـاً لا نعقـد النكاح وصح بهذا المهر وصارت له زوجة حلالاً .

٣ـ أخرج الامام الترمذى فى سننه : أن امرأة من بنى فزارة تزوجـت علـى نعلـين فقال رسول ا لله ﴿ﷺ﴾ :

" أرضيت من نفسك ومالك بنعلين ؟ " .

قالت : نعم .

قال الراوى : فأجازه النبى ﴿ﷺ﴾ وقد استدل بهذا الحديـث مـن قـال بجـواز كـون المهر شيئاً حقيراً له قيمة [٣]

---

(١) راجع صحيح البخارى شرح العسقلانى ٩ : ٢١١

(٢) رواه الامام احمد وأبو داود بمعناه

(٣) راجع سنن الترمذى وشرحه تحفة الأحوذى ٤ :٢٥٠ ـ ٢٥١ وابن ماجه فة سننه ١ : ٦٠٨

أكثر المهر ...

إذا كان الفقهاء قد اختلفوا فى تحديد أقل المهر المسمى فإنهم لم يختلفوا فى أنه لا حد لأكثره ، فيجوز أى مقدار تراضى عليه الزوجان .

قال ابن قدامه الحنبلى - رحمه الله - : وأمَّا أكثر الصداق فلا توقيت فيه باجماع أهل العلم . قال ابن عبد البر . وقد قال الله تعالى :

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾[1].

إن الإسلام ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً ، وينظر إلى العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمة ، ويقيم هذه الرابطة على الاختيار المطلق ، فإذا تبين بعد الزواج أن الحياة بين الزوجين غير مستطاعة ، وأنه لابد من الانفصال واستبدال زوج مكان زوج فعندئذ تنطلق المرأة بما أخذت من صداق ، وما ورثت من مال لا يجوز استرداد شئ منه ، ولو كان قنطاراً من ذهب .

وفى المجموع فى فقه الشافعى : وأمَّا أكثر الصداق فليس له حد وهو اجماع لقوله تعالى : **﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾** .

قال ابن عباس : القنطار سبعون ألف مثقال .

وقال أبو سعيد الخدرى : القنطار ملء مسك ثور ذهبا ومسك الثور جلده .

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز المغالاة فى المهور ...؟

وما هى الوسيلة أو المعيار التى يمكن عن طريقه معرفة المغالاة من عدمها ...؟

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٠

المغالاة في المهور ...

يطيب لنا أن نستعرض أقوال الفقهاء فى تفسير قوله تعالى ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً**﴾

قال الإمام القرطبى : فى هذه الآية دليل على جواز المغالاة فى المهور لأن ا لله تعالى لا يمثل إلا بمباح [1] .

وقال ابن كثير : فى هذه الآية دلالة على جواز الاصداق بالمال الجزيل .

وقال الحافظ أبو يعلى بسنده عن الشعبى عن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول ا لله (ﷺ) ثم قال :

" أيها الناس ما إكثاركم فى صداق النساء ، وقد كان رسول ا لله (ﷺ) وأصحابه والصدقات بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك ، ولوكان الاكثار فى ذلك تقوى عند ا لله ، أو كرامة لم تسبقوهم إليها ، فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم .

قال :ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت :

" يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم ؟ "

قال : نعم .

فقالت : أما سمعت ما أنزل ا لله فى القرآن ...؟

قال : وأى ذلك ؟

فقالت : أما سمعت ا لله يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً** ﴾

قال : اللهم غفراً كل الناس أفقه من عمر .

---

(١) راجع تفسير القرطبى ٥ :٩٩

ثم رجع فركب المنبر فقال : " أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم . فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب " . قال أبو يعلى : وأظنه قال : " فمن طابت نفسه فليفعل " .

قال ابن كثير إسناده قوى [1] .

ولنا أن نتساءل هل خفيت هذه الآية على عمر بن الخطاب حتى ذكرته بها هذه المرأة ، وإذا كانت لم تخف عليه فما تبرير رجوعه ...؟

وقد أجاب العلماء على ذلك بعدة وجوه :

الأول : أن نهى عمر(ﷺ) عن جعل المهر مالاً كثيراً هو على وجه الندب لا التحريم قال الامام ابن العربى المالكى :

وهذا أى نهى عمر سالف الذكر ـ لم يقله عمر على طريق التحريم ، وإنما أراد به الندب إلى التعليم ، وقد تناهى الناس فى الصدقات ـ أى فى المهور ـ حتى بلغ صداق امرأة ألف ألف ، وهذا قل أن يوجد من حلال [2] .

الثانى : أن الآية الكريمة أباحت إيتاء المرأة الكثير ـ القنطار ـ مهراً لها و لم توجب ذلك ، وللإمام أن يجتهد فى تقييد المباح بالنهى عنه أو الأمر به فى بعض الأوقات والأحوال لمصلحة يراها .

الثالث : يحتمل أن يكون رجوع عمر عن اجتهاده فى تحديد أكثر المهر عندما سمع كلام المرأة وما فى اعتراضها من دلالة على أن النساء لا يرغبن فى التنازل عما أباحه الشرع لهن من الزيادة فى المهور ، وأن هذا إذا كان فيه مصلحة للرجال ففيه عدم رضا النساء ويعتبرونه من الضرر بهن .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ١ : ٤٦٧ ط دار المعرفة بيروت ـ لبنان

(٢) راجع تفسير ابن العربى ١ :٣٦٤ ـ ٣٦٥

المستحب عدم المغالاة في المهور

إذا كان الاتفاق حاصلاً على عدم وجود حد لأكثر المهر المسمى فى الإسلام فإن الاجماع قائم على استحباب عدم المغالاة فى المهور لما ينشأ عن ذلك من أخطار اجتماعية تحول دون انتشار الزواج وتكاثر العنوسة . وقد تناول الأئمة الاعلام عدم المغالاة فى المهور بالتوضيح والتفصيل .

من ذلك ما يقوله الشافعى رضى الله عنه : " الاقتصاد فى المهر أحب إلىّ من المغالاة فيه " (١) .

ويقول ابن قدامة الحنبلى : "يستحب أن لا يغلى الصداق "(٢).

ومن الأدلة التى ساقها العلماء فى استحباب عدم المغالاة فى المهور ما يأتى :

أولا : ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال :

" أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة " (٣) .

ثانياً : ما رواه البيهقى فى سننه بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها قالت :" قال رسول الله (ﷺ) من يمن المرأة أن تتيسر خطبتها ، وأن يتيسر صداقها ، وأن يتيسر رحمها ." (٤)

قال عروة يعنى يتيسر رحمها للولادة .

---

(١) راجع المجموع ١٥ : ٤٨٣

(٢) المغنى ٦ : ٦٨١

(٣) المسند ٦ : ٨٢ ، ١٤٥ (حلبى) وسنن البيهقى ٧ :٢٣٥

(٤) سنن البيهقى ٧ : ٢٣٥

ثالثاً : قول أبو هريرة رضى ا لله عنه : " كان صداقنا إذ كان فينا رسول ا لله (ﷺ) عشر أواق " [(١)].

رابعاً : ما رواه البيهقى بسنده عن محمد بن سيرين عن أبى العجفاء السلمى قال : سمعت عمر بن الخطاب (ﷺ) يقول :

" إياكم والمغالاة فى مهور النساء فإنها لو كانت تقوى عند ا لله أو مكرمة عند الناس لكان رسول ا لله (ﷺ) أولاكم بها ما نكح رسول ا لله (ﷺ) شيئاً من نسائه ولا انكح واحدة من بناته بأكثر من اثنى عشر أوقية وهى أربعمائة درهم وثمانون درهماً ، وإن أحدهم ليغالى بمهر امرأته حتى تبقى عداوة فى نفسه فيقول : لقد كلفت لك علق القربة " [(٢)] .

وفى نهاية هذا البحث نحب أن نقول : الزواج فى منهج الإسلام التقاء نفسين عن رغبة واختيار . والصداق حقاً للمرأة تأخذه لنفسها فيجب أن يكون كافياً ومحدداً لتقبضه المرأة فريضة لها ، وواجباً لا تخلف فيه وأوجب أن يؤديه الزوج هبة خالصة لصاحبته وأن يؤديه عن طيب نفس ، وارتياح خاطر ، كما يؤدى الهبة والمنحة .

فإن طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شئ من صداقها ـ كله أو بعضه ـ فهى صاحبة الشأن فى هذا ، تفعله عن طيب نفس ، وراحة خاطر ، والزوج فى حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه ، وأكله حلالاً طيباً هنيئاً ، لأن العلاقات بين الزوجين ينبغى أن تقوم على الرضى الكامل والاختيار المطلق والسماحة النابعة من القلب .

والشريعة الإسلامية عندما تركت تحديد المهر وعدم حصره فى مقدار معين راعت فى ذلك عرف الناس وعاداتهم ، والغلاء والرخص فى قيم الأشياء وأثمانها والفقر

(١) المصدر السابق ٧ : ٢٣٥

(٢) المصدر السابق ٧ :٢٣٤ وسنن الترمذى ٤ : ٢٥٥

والغنى ، وتباين طبقات المجتمعات وعلينا فـى مثـل هـذه الأمـور أن نقتـدى بحديـث الرسول (ﷺ) :

" أنتم أعلم بأمور دنياكم "

هذا وبا لله التوفيــــــــق

قال الله تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات فى : **ماريـــــة القبطيـة أم إبراهيـم**

قال ذلك صاحب الدر المنثور ٦ : ٢٣٩ - ٢٤٠

وقاله ابن كثير فى التفسيـــــر ٤ : ٣٨٦ - ٣٨٧

وقاله ابن جريرالطـبرى فى التفسير ٢٨ - ٤٦٠

فمن هى مارية ...؟

مارية القبطيـــــة ...

سرية الرسول ﴿ﷺ﴾

وأم ابراهيم بن محمد ، قرة عين أبيه ، وفلذة كبده ، والريحانة التـى مـلأت حياتـه شذى وعطراً .

وهدية المقوقس إلى محمد ﴿ﷺ﴾.

تقول عنها أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما غرت على امـرأة كمـا غـرت من مارية . لأنها كانت جميلة بيضاء ، جعدة الشعر لطيفة المحيا .

ولدت فى صعيد مصر ، وكانت أمها رومية ، وترعـرت طفولتهـا علـى الـثرى الخصب والخير الوفير ، وفتحت عيونها على مياه النيل ، وهىَ تنساب إلى الشمال فـى سهولة ويسر ، واستمتعت بشمس الصعيد الدافئة ، ونسماته العليلة .

ولكن كيف انتقلت هذه النقلة البعيـدة ، وكيـف تـابعت هـذه الرحلـة الشـاقة ، الممتدة حتى وصلت إلى أرض يثرب ...؟

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تسجل عقد الهدنة بين محمـد ﴿ﷺ﴾ وقريـش ، ثـم عاد عليه السلام إلى يثرب وما كـاد يسـتقر بـه المقـام حتـى أرسـل الصحـابى الجليـل حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر قائلا فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ـ من محمـد بـن عبـد الله إلى المقوقـس عظيـم القبـط . سلام الله على من اتبع الهدى .

أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسـلم تسـلم يؤتـك الله أجـرك مرتـين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط .

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا ا لله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون ا لله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمين " .

وما كادت تصل الرسالة وتقرأ على مسامع المقوقس حتى قال :

" قد كنت اعلم أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، حيث مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب " .

ثم بعث إلى بطارقته ، فجاءوا سراعاً إلى مجلسه ، وأخبرهم بما حوته رسالة النبى العربى . ثم إلتفت إلى حاطب وقال له : إنى سائلك بكلام فأحب أن تفهم عنى .

قال حاطب : هلم هات ما عندك .

قال المقوقس : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ...؟

قلت : بلى هو رسول ا لله .

قال : فما له حيث كان هكذا لِمَ لَمْ يدعو على قومه حيث أخرجوه من بلده الى غيرها ...؟

قال حاطب : قلت : عيسى بن مريم أليس تشهد أنه رسول ا لله ...؟

قال : بلى .

قلت : فما باله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم ا لله حيث رفعه ا لله إليه ...؟

فقال لى : أنت حكيم جاء من عند حكيم .

ثم قال له : سأبعث معك إلى محمد جاريتين هما مارية وسيرين وغلام أسود ، وبغلة بيضاء ، وكوكبة من الفرسان حتى تصل إلى مأمنك .

وتذكر الروايات أن حاطب بن بلتعه ، قد عرض عليهما الإسلام ــ وهما فى الطريق إلى يثرب فأسلمت مارية وأختها .

لم تتلعثم عندما عرض عليها الإسلام ، و لم تتأخر ، لأن حياتها فى مصر الذى كان شعبها يعرف عقيدة التوحيد ، وأن نبى ا لله ادريس عليه السلام دعى أهلها إلى عبادة ا لله وحده ، ونبذ كل ألوان الشرك . كان دافعاً قوياً لها لقبول الإسلام . ويقال : إن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالبعث ويصدقون بما يكون بعد الموت فحرصوا على اقامة القلاع ، وتشييد الحصون من أهرامات وخلافه إيمانا بالخلود والبقاء . ويحدثنا تاريخهم القديم عن ملامح تصورهم للحياة الآخرة ، وما يكون فيها من حساب وعقاب وجزاء عن طريق محكمة مكونة من أربعين قاضياً يرأسها قاضى القضاة (أوزريس) .

وكانت مارية ـ تعتقد كقومها : أن الإنسان لا يفنى ، والموت مرحلة انتقال إلىحياة أخرى حياة الأبدية والخلود [1].

وعندما وصلت إلى يثرب أنزلها رسول ا لله (ﷺ) فى العالية التى يقال لها اليوم مشربة أم إبراهيم ـ وكان رسول ا لله (ﷺ) يختلف إليها هناك وضرب عليها الحجاب، وكان يطأها بملك اليمين ، فلما حملت ، وضعت هناك ــ فجاء أبو رافع زوج سلمى ـ مولاة رسول ا لله (ﷺ) فبشر الرسول عليه السلام بإبراهيم فوهب له عبداً .

وتنافست الأنصار فى إبراهيم وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبى (ﷺ) لما يعلمون من هواه فيها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضى ا لله عنهما قال : قلت لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من المرأتان اللتان تظاهرتا...؟

قال : عائشة وحفصة .

---

(١) راجع رجال أنزل ا لله فيهم قرآنا للمؤلف٣ : ١٤٨

وكان بدء الحديث فى شأن مارية أم إبراهيم القبطية ـ أصابها النبى (ﷺ) فى بيت حفصة فى يومها فوجدت حفصة فقالت : يا نبى الله لقد جئت الىَّ شيئاً ما جئته إلى أحد من أزواجك . فى يومى ، وفى دارى ، وعلى فراشى .

فقال عليه السلام :

" ألا ترضين أن أحرِّمها فلا أقربها " .

قالت : بلى . فحرمها وقال :

" لا تذكرى ذلك لأحد " فذكرته لعائشة ـ رضى الله عنها ، فأظهره الله عليه فأنزل الله قوله :

﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك** ﴾ (1) .

ويقال : إن النبى (ﷺ) كفر عن يمينه وأصاب جاريته .

وعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : كانت أم إبراهيم سرية للنبى (ﷺ) فى مشربها ، وكان قبطى يأوى إليها ، ويأتيها بالماء والحطب فقال الناس فى ذلك : علج يدخل على علجة ...؟

فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) ، فَأُرسِل علىٌّ بن أبى طالب فوجده علىٌّ على نخلة ، فلما رأى السيف وقع فى نفسه فألقى الكساء الذى كان عليه وتكشف فإذا هو مجبوب . فرجع علىَّ الى النبى (ﷺ) فأخبره فقال : يا رسول الله أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمرثم رأى فى غير ذلك أيراجعك ...؟

قال : نعم .

وكانت مارية تردد دائما قصة هاجر زميلتها المصرية التى أهداها ملك مصر إلى سارة ، ورحلت من بلاد النيل بصحبة إبراهيم عليه السلام ، وانجبت منه ابنها

---

(1) سورة التحريم آية رقم ١

اسماعيل . وكيف تركها قرب البيت العتيق ويذكر القرآن الكريم قولة ابراهيم فى ذلك :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] .

كانت مارية تحلم بنجدة السماء ، وقد أثارت قصتها المتشابة تماماً لقصة هاجر زوجات النبى الشرعيات ، وكان الفرق الوحيد بينها وبين هاجر أنها لم يكن لديها ولد . والنبى قد شارف الستين من العمر ، فهل تتحق لها الأمنية ...؟

لم تحظ مارية بلقب أم المؤمنين ، وكان النبى يطأها بملك يمينه ، وقد أسدل عليها الستار فاطمأن بها المقام ، وانصرفت تماماً لخدمة النبى (ﷺ) فكان لها السيد والصديق والأهل والوطن .

وانحصر كل همها أن تظل موضع حظوته ورضاه ، وكانت لا تكف أبداً عن ذكر هاجر واسماعيل وإبراهيم عليهم السلام .

وفى عامها الثانى : أحست مارية ببوادر الحمل ، وعندما تيقنت من ذلك عاشت فى رؤى من الأحلام حالمة ، وأدركت أن الله تعالى قد استجاب لدعائها .

وحين علم الرسول (ﷺ) بهذا الحدث ، رفع رأسه إلى السماء يشكر الله على هديته ، وبعد أن فقد ابنته الغالية زينب ، ومن قبلها رقية ، وأم كلثوم ، وعبد الله والقاسم .

وتذكر النبى (ﷺ)ما كان من قصة ابراهيم وبشرى ذكريا فى قوله الذى ذكره القرآن الكريم :

---

(١) سورة إبراهيم آية رقم ٣٧

﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾[1].

وسرى الخبر فى كل أرجاء المدينة ، بأن النبى (ﷺ) ينتظر مولوداً من مارية المصرية.

وسقط هذا الخبر كالصاعقة بين نساء النبى ، فخاف النبى على مارية ونقلها الى ضواحى المدينة فى مكان يدعى العالية . وسهر عليها يرعاها .

وفى ذات ليلة من شهر ذى الحجة فى السنة الثامنة للهجرة . دخلت عليه أم رافع القابلة لتبشره بالغلام فأكرمها وذهب الى مارية فهنأها وحمل الغلام بين يديه وسماه ابراهيم .

إنه الغلام الذى يملأ الحياة بهجة وبهاء .

إنه الغلام الذى يحمل الذكرى ويساهم فى تجديد حبل الحياة .

إنه الغلام طلبة الغنى والفقير ، والمليك والخفير .

إنه الغلام الذى طلبه نبى الله زكريا بقوله :

﴿ **رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين** (٨٩) ، **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه** (٩٠) ﴾ [2] .

لكن سعادة مارية لم تكتمل فقد مرض ابراهيم وهو ما زال رضيعاً لم يكمل العامين من العمر ، فوضعه النبى (ﷺ) فى حجره وهو يسمع حشرجة احتضاره مختلطة ببكاء أمه وخالته .

---

(١) سورة مريم الآيتان ٨ - ٩

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٨٩ - ٩٠

وحين مات ابراهيم انحنى النبى على جثمان ابنه فقبله والدمع يفيض من عينيه وقال : " يا ابراهيم ، لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون " [1].

وبينما كانوا يغسلون الطفل الصغير الميت استعداداً لدفنه . كان النبى جالساً ينظر إليه فى حزن عميق وألم بالغ ، وحين وصلوا الى البقيع . اضجعه بيده فى قبره ثم سوى التراب وندّاه بالماء .

وطوى النبى عليه السلام جرحه فى قلبه صابراً على قضاء الله .

ولقد روى الإمام أحمد ـ ما كان من زوجات النبى (ﷺ) ومارية. بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى (ﷺ) اللتين قال الله تعالى :

﴿ **إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾[2].

حتى حج عمر وحججت معه فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداوة فتبرز ثم أتانى فسكبت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبى (ﷺ) اللتان قال الله تعالى ﴿ **إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ .

فقال عمر : واعجباً لك يا بن العباس ـ قال الزهرى : كره والله ما سأله عنه و لم يكتمه قال هى عائشة وحفصة . قال ثم أخذ يسوق الحديث ـ قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

قال : وكان منزلى فى دار أمية بن يزيد بالعوالى . قال : فغضبت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى فأنكرت أن تراجعنى .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٤٣ ومسلم فى الفضائل ٦٢ وأبو داود فى الجنائز ٢٤ وابن ماجة فى الجنائز ٥٣ .

(٢) سورة التحريم آية رقم ٤

فقالت : ما تنكر أن أراجعك ...؟ فوا لله إن أزواج رسول ا لله (ﷺ) ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل .

قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول ا لله (ﷺ)...؟

قالت : نعم .

قلت : وتهجره إحداكن اليوم الى الليل ...؟

قالت : نعم .

قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر أفتأمن إحداكن أن يغضب ا لله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ، لا تراجعى رسول ا لله (ﷺ) ولا تسأليه شيئاً وسلينى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هى أوسم - أى أجمل - وأحب الى رسول ا لله (ﷺ) وآله وسلم منك - يريد عائشة .

قال : وكان لى جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول الى الرسول (ﷺ) ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتينى بخبر الوحى وغيره ، وآتيه بمثل ذلك .

قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابى ثم نادانى فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم .

فقلت : وما ذاك أجاءت غسان ...؟

قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول ا لله (ﷺ) نساءه .

فقلت : قد خابت خفصة وخسرت قد كنت أظن أن هذا كائناً : حتى إذا صليت الصبح شددت علىَّ ثيابى ثم نزلت . فدخلت على حفصة وهى تبكى فقلت : أطلقكن رسول ا لله (ﷺ).

فقالت : لا أدرى ، هو هذا معتزل فى هذه المشربة ...؟؟

قال عمر : فأتيت غلاماً له أسود . فقلت استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج الىَّ فقال ذكرتك له فصمت .

فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس يبكى بعضهم فجلست عنده قليلاً ثم غلبنى ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج فقال : قد ذكرتك له فصمت ...؟؟

فخرج فجلست الى المنبر ثم غلبنى ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج الىَّ

فقال : قد ذكرتك فصمت ، فوليت مدبراً . فإذا الغلام يدعونى فقال : ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله (ﷺ) فإذا هو متكئ على رمل حصير .

قال الإمام أحمد رمال حصير قد أثر فى جنبه .

فقلت : أطلقّت يا رسول الله نساءك ...؟

فرفع رأسه الىَّ وقال :لا .

فقلت : الله أكبر . فتبسم رسول الله (ﷺ) .

فقلت : استأنس يا رسول الله ...؟

قال : نعـــــم .

فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله ...؟

فاستوى جالساً وقال : أفى شك أنت يا ابن الخطاب ...؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

فقلت استغفر لى يا رسول ا لله وكان أقسم أن لا يدخل عليهــن شـهراً مـن شـدة موجدته عليهن .

ألا يدخل عليهن شهراً و لم يطلقهن ، لأن الطلاق أبغض الحـلال عنـد ا لله تعـالى، كما قال الرسول (ﷺ) .

ويقول الرسول أيضاً :

" تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن " .

" وأيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة " .

ولهذا يقول ا لله سبحانه وتعالى فى شأن التباغض والتدابير بين الرجل وزوجته — التباغض الذى يصل إلى درجة الكره :

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل ا لله فيه خيراً كثيراً ﴾

أسباب النزول ...

عن أنس أن رسول الله (ﷺ) كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل :

﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟** ﴾[1] .

وقال ابن جرير بسنده عن زيد بن أسلم - أن رسول الله (ﷺ) أصاب أم ابراهيم فى بيت بعض نسائه فقالت : أى رسول الله فى بيتى وعلى فراشى ... ؟ فجعلها عليه حراماً .

قالت : أى رسول الله كيف يحرم عليك الحلال ...؟

فحلف لها بالله لا يصيبها فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ .

قال زيد بن أسلم فقوله أنت عليَّ حرام لغو .

وقال سفيان الثورى وابن عليه عن داود بن هند عن الشعبى عن مسروق قال : آلى رسول الله (ﷺ) وحرم فعوتب فى التحريم وأمر بالكفارة فى اليمين .

رواه ابن جرير .

وعن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قلت لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من المرأتان ...؟ قال : عائشة وحفصة ، وكان بدء الحديث فى شأن أم ابراهيم مارية أصابها النبى (ﷺ) فى بيت حفصة فى نوبتها

---

(١) سورة التحريم آية رقم ١

فوجدت حفصة فقالت : يا نبى ا لله لقد جئت الىّ شيئاً ما جئت الى أحد من أزواجك فى يومى وفى دورى وعلى فراشى ...؟؟

قال : ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها ...؟

قالت : بلى . فحرمها . وقال لها : لا تذكرى ذلك لأحد . فذكرته لعائشة ، فأظهره ا لله عليه فأنزل ا لله تعالى :

﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل ا لله لك تبتغى مرضات أزواجك** ﴾ الآيات كلها فبلغنا أن رسول ا لله (ﷺ) كفر عن يمينه وأصاب جاريته [1] .

وعن ابن عمر قال النبى (ﷺ) لحفصة : لا تخبرى أحداً وإن أم ابراهيم علىَّ حرام .

فقالت : أتحرم ما أحل ا لله لك ... ؟

قال : فوا لله لا أقربها .

قال : فلم يقربها حتى أخبرت عائشة قال فانزل ا لله تعالى :

﴿ **قد فرض ا لله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ [2] .

قال ابن كثير : وهذا اسناد صحيح و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج .

وقال ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول فى الحرام يمين تكفرها

وقال ابن عباس : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول ا لله أسوة حسنة** ﴾[3].

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ٤ : ٣٨٦ - ٣٨٧

(٢) سورة التحريم آية رقم ٢

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٢١

يعنى أن رسول الله (ﷺ) حرم جاريته فقال الله تعالى ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟ إلى قوله - قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ .

فكفر يمينه فصير الحرام يميناً .

ورواه البخارى عن معاذ بن فضاله بسنده عن ابن عباس : " فى الحرام يمين تكفر"

ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى به .

وقال النسائى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أتاه رجل فقال : إنى جعلت امرأتى علىَّ حراماً . قال : كذبت ليس عليك بحرام ، ثم تلا هذه الآية :

﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟** ﴾[1].

عليك أغلظ الكفارات عتق رقبة . تفرد به النسائى من هذا الوجه . بهذا اللفظ والله أعلم .

---

(١) سورة التحريم آية رقم ١

تذييـــــــــــل

قال الله تعالى :

﴿ **واللاتى تخافون نشوذهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾[1] .

ما هو النشوز ...؟ أهو ترفع المرأة على زوجها ...؟

أو الأنفعال والجموح والاستعلاء بالجمال والمال أو بالمركز العائلى ...؟

أهو خروج المرأة عن قوامة الرجل التى أمر الله تعالى بها فى قوله :

﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾[2] .

أهو تحول المرأة نداً للرجل فى حلبة صراع وقتال ...

أهو مرض من الأمراض التى تصاب به بعض النساء ويحتاج إلى علاج وحسن معاملة من الرجل ... ؟

إن منهج الإسلام يلجأ إلى معالجة النشوز فى الأسرة المسلمة قبل توقعه ولا ينتظر حتى يقع . وبمجرد ظهور هذه الآثار يرشد الله تعالى الأزواج إلى المبادرة بالعلاج ، ويأمرهم ألاينتظروا حالة النشوز الفعلى ليبدءوا علاجهم ، ولهذا وضع الإسلام خطة هذا العلاج التى تتمشى مع المعروف من أطوار الخلاف .

وأولى هذه الخطوات : الموعظة ... قال تعالى :

﴿ **فعظوهن** ﴾ .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣٤

(٢) سورة النساء آية رقم ٣٤

فالزوج يبادر زوجته فى هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستتراً أو على استحياء ، فينصحها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقته وحسن أدبه ، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة ، ويمدحها فى تلطف بأخلاقها وأخلاق أسرتها ويحذرها شماتة الأعداء ، وحزن الأصدقاء وهذه هى مقدمات الواجب التى يجب أن يقوم بها الزوج إزاء زوجته وأسرته .

ومن الموعظة : أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر لها ذلتها عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله فى ذلك . وأنه ليس متهوراً مندفعاً من أول الأمر ، فإن هذا العمل يصلح كثيراً من النساء اللواتى لا تصلحهن الشدة والعنف .

ثانى هذه الخطوات : الهجر ... قال تعالى : ﴿ **واهجروهن فى المضاجع** ﴾ .

فإذا فشلت الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن مقدمة من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها لذلك يجب على الرجل أن يظهر غضبه من هذا الفعل بطريقة صامتة بليغة فى صمتها مؤثرة تأثيراً كثيرا فى المرأة . وهى الهجر فى المضجع ، فإذا فعل الرجل ذلك ، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أقوى أسلحتها التى تعتز بها وكانت فى الغالب أميل إلى التراجع والملاينة ، ومنهج الإسلام يضع أدباً لهذا الهجر .

فهو هجر مستتر فى المضجع ، ولا يكون ظاهر فى غير مكان خلوة الزوجين . فلا يصح أن يكون هجراً أمام الأطفال يورث فى نفوسهم شراً وفساداً .

ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها فتزداد نشوزاً ، لأن المقصود من الهجر هو العلاج لا الاذلال .

ولا شك أن هذه الخطوة لو أديت على وجهها الكامل ، وفى وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة ، وتكون سنداً طبيعياً للخطوة الأولى ، وإلا كان الرجل متصنعاً فى نصحه ووعظه ، وممثلا لدور الغاضب أو الآسف ، بينما هو الراغب الطالب .

ثالث هذه الخطوات : الضرب . قال تعالى ﴿**وأضربوهن** ﴾ .

لقد فشلت الخطوة الأولى وفشلت الخطوة الثانية ، ويوشك هذا النشوز أن يعصف بالحياة الزوجية ، وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشتات ، وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد صغار ، ويتأثرون بهذه المشاحنات ، وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات فكان لابد من اللجوء إلى الضرب .

وهذا الضرب المأذون فيه إنما الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه (غير مبرح) وقد أعتاد الناس فى كل عصر ومصر أن يؤدبوا بمثله أبناءهم وبناتهم صغاراً وكباراً فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة .

وقد يكون من النساء من لاتحس قوة الرجل الذى ترضاه قيماً وترضاه زوجاً إلا حين يقهرها عضلياً وليس هذه طبيعة كل امرأة . ولكن هذا الصنف موجود . وهو الذى يحتاج إلى هذه المرحلة الأخيرة ليستقيم ، ويبقى على المؤسسة الخطيرة مؤسسة حضانة الأولاد وسعادة الأسرة واستمرارها .

يقول الشيخ محمد محمد المدنى : " وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشاً ويقولون إنه انما يصلح للقرون الأولى ، لا لعصور المدنية والحضارة ، ولكنهم فى هذا النقد غير منصفين ، وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء ، حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال ، والمتحكمات فى شئون الأسرة ، فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة ، وأسباغ ألوان من الاحترام عليها ، حتى أفسدوا ذوقها .

أفسدوا ذوقها من خلال هذا الدلال .

وأفسدوا ذوقها من خلال جعلها قيمة تمسك بيديها كل شئون الأسرة .

وأفسدوا ذوقها : عن طريق الاختلاط ومخادنة الرجال وتفشى الصداقات بين الرجال والنساء .

والإسلام لا ينكر على المرأة كرامتها ، ولكنه يقف بها عند حدها الذى رسمه لها

ملاحظاً فيه دورها فى المجتمع ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها ، وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج " [1] .ولا ننسى أن الذى شرع ذلك وأمر به هو الله سبحانه وتعالى الخبير بكل خلجة من خلجات النفس ، وبكل ذرة من ذرات الجسم وصدق ربى فى قوله :

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

ونتساءل أيهما أجدى للمجتمع : إفساد الحياة الزوجية ، وتشريد الأبناء والبنات وتحطيم القلوب وتخريب البيوت وتقطيع أواصر الرحمة والمودة أم لطمة على خد أو صفعة على يد ... ؟

لا شك أن العلاج الثانى أجدى وأنفع .

ويطيب لى أن أستعرض بعض توجيهات الرسول (ﷺ) فى هذا الصدد . جاء فى كتب السنن عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : يا رسول الله ماحق امرأة أحدنا عليه ...؟

قال : " أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولاتضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت " [3].

وروى أبو داود والنسائى وابن ماجة قال النبى (ﷺ) " لا تضربوا إماء الله " .

لأن الإسلام يلجأ إلى النصيحة الصادقة ، والموعظة الحسنة . ويرفض الفظاظة ، والتجبر ، والاذلال الذى يحول المرأة رفيقة الحياة إلى أمة ليس لها من أمرها شئ .

فجاء عمر (رضي الله عنه) إلى رسول الله (ﷺ) فقال : ذئرت النساء على أزواجهن . فرخص رسول الله (ﷺ) فى ضربهن فأطاف بآل رسول الله (ﷺ) نساء كثير

---

(١) راجع المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء ٢١٥

(١) سورة الملك آية رقم ١٤

(٢) الحديث أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند ٥ : ٣ وأبو داود فى النكاح ٤١

يشتكين أزواجهن .

فقال رسول الله (ﷺ) : " لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم " .

وقال (ﷺ) : " لا يضرب أحدكم امرأته كالعير يجلدها أول النهار ثم يضاجعها آخره "[1] .

وقال : " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي " [2] .

إذن الضرب شئ طارئ في حالة طارئة ، وليس قاعدة من القواعد التي تلازم الحياة الزوجية ، ولا تصلح مسيرة الزواج إلا به . ولهذا قال الله تعالى بعد ذلك :

﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾[3] .

وإلا كان الزوج متجنياً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التي جعلها في يده للاصلاح بالمعروف لا للتحكم واتباع الهوى .

(١) ذكره صاحب مصابيح السنة الصحاح بسنده عن أبي هريرة

(٢) رواه الترمذي والطبراني وابن ماجة في النكاح ٥٠ والدرامي في النكاح ٥٥

(٣) سورة النساء آية رقم ٣٤

سهلة بنت ملحان مهرها الإسلام

قال الله تعالى :

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾

سورة النساء آية رقم ٤

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تغالوا في صداق النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم وأحقكم بها محمد صلى الله علية وسلم ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتى عشر أوقية , وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه .ويقول : قد كلفت اليك علق القربة أو عرق القربة .

رواه ابن ماجة في سننه

سهلة بنت ملحان ـــ مهرها الإسلام

فوق الصحراء الممتدة الصافية عرفتها الحياة طفلة وشابة ، وعلى ثراها الطيب الطاهر الذى خرَّج هؤلاء الرجال المغاوير الذى حملوا دين الله وانداحوا به فى أربعة أركان الأرض كانت حياتها وآمالها .

من هذه الفتاة التى سجل التاريخ اسمها على جبهته بأحرف من نور ...؟

إنها سهلة بنت ملحان ...

فتاة الصحراء ، وربيبة البادية ، والتى عرفت بين لداتها وأترابها بأنها صبوحة الوجه ، صافية القلب ، نقية السريرة ، سليمة الخلقة ، جميلة العينين .

ولقد كانت دائما موضع اهتمام الشباب ومحط آمالهم لتكون زوجة صالحة وأماً حانية ، وزهرة فواحة بالعطر فى منزلها السعيد .

ولكن مالك بن النضر فارس القبيلة وزينة شبابها ظفر بها فى الجاهلية فولدت له أنس بن مالك (ﷺ) ... نعـــم :

أنـــــس بن مالك ـ الذى قال :

خدمت رسول الله (ﷺ) عشر سنوات فما قال لى أف قط ولا لشئ صنعته لما صنعته ، ولا لشئ تركته لما تركته ، بل كان يقول : " ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ... " .

فلما جاء الإسلام سمعت سهلة بدعوته فاتجهت إلى رسول الله (ﷺ) واستمعت إلى حديثه وإلى الوحى الذى جاء به جبريل عليه السلام ... قال تعالى :

﴿ والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطق عن

الهوى (٣) إن هو إلا وحي يوحى (٤) ﴾[1] .

فأسلمت على يدى رسول ا لله (ﷺ) .

ثم اتجهت إلى بيتها وجلست تترقب وصول زوجها من مرعاه خارج المدينة .

وما كادت الشمس تميل إلى الغروب حتى شاهدت زوجها يهرول بالقدوم إلى بيته تسبقه إبله ومواشيه .

فعادت إلى داخل بيتها ولبست أجمل ثيابها وتطيبت له ، وقدمت له طعامه وشرابه ، وجلست بجواره تداعبه وتلاطفه ، وتحدثه عن النور الجديد ، عن دعوة الإسلام التى جاء بها محمد الأمين صلوات ا لله عليه .

وسألها زوجها إلى أى شئ يدعو هذا الدين الجديد ؟

قالت : يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد .

قال: هل وعيت شيئاً من كلامه ؟

قالت : إنه ينزل عليه وحياً من ربه يسمى قرآناً ومما سمعته أذناى ووعاه قلبى قول ا لله تعالى :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولاتقتلوا النفس التى حرم ا لله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد ا لله أوفوا ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾[2] .

---

(١) سورة النجم الآيات من ١ ـ ٥

(٢) سورة الانعام الآيتان ١٥١ ـ ١٥٢

ووصفت له لقاءها برسول الله(ﷺ) فى ذلك اليوم ودعتـه أن يذهب إليه ليسلم على يديه .

ولكن مالكاً كان فى شغل شاغل عنها وعن هـذا الدين فلم يفتح قلبه للدعوة الجديدة ، و لم يستجب لرجائها ودموعها .

إذن لن تكون له زوجاً ، ولن يجمعها بيت واحد فأنفصلت عنه و لم يطق زوجها صبراً على فراقها فخرج إلى الشام ومات هناك .

ومن هذا التاريخ وهبت سهلة بنت ملحان نفسها للدعوة الجديدة وللنور المشرق، فأخذت تدعو إلى دين الله بلسانها وجنانها وسلاحها .

وسمع أبو طلحة الأنصارى بانفصالها عن مالك بن النضر فرغب فى زواجها فتوجه إليها وكلمها فى ذلك .

فقالت سهلة : يا أبا طلحة ما مثلك يرد ، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة لا تصلح لى زوجاً حتى تعلن إسلامك وتؤمن بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد و لم يولد . وأرسل رسوله محمداً بن عبد الله بشيراً إلى الناس كافة .

وكأن الرجل لم يفهم ما تريده منه .

فقالت مستزيدة : يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذى تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشى بنى فلان ... ؟

قال : بلى .

قالت : يا أبا طلحة أفلا تستحى أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها هذا الحبشى . وهى لا تنطق فتسمع منها الحكمة ، ولا تعى فتسمع منك شكواك إن شكوت أو تخفف عنك بلواك إن ابتليت ، أو تكافئك على عبادتك إن عبدت .

ثم تابعت حديثها قائلة إن أسلمت لم أرد منك من المهر غيره .

قال لها أبو طلحة : إننى أعطيك من المهر ما تبغينه من الذهب والفضة .

قالت : فإنى لا أريد ذهباً ولا فضة ، ولكنى أريد منك الإسلام .

قال أبو طلحة : حتى أنظر فى أمرى .

وكرت الأيام ومرت الليالى وأبو طلحة يقلب أمره ويستفتى قلبه ، ثم عاد مرة أخرى يطرق باب سهلة قائلا : من لى بالإسلام يا سهلة ... ؟

فدلته إلى رسول الله (ﷺ) .

فأنطلق أبو طلحة يريد النبى (ﷺ) فلما رآه رسول الله وهو جالس بين أصحابه قال لهم :

" لقد جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه " .

فأخبر الرسول (ﷺ) بما قالت سهلة فأسلم على يديه ونطق بالشهادتين .

ثم عادإلى عروسه وتزوجها على ما أشترطت من مهر .

قال ثابت (رضي الله عنه) :

" فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهراً " .

وعاشت سهلة بنت ملحان مع أبى طلحة كأسعد ما يكون زوجين ترفرف المودة والمحبة على بيتها الجميل .

وولدت سهلة لأبى طلحة غلاماً فكملت سعادتهما ، وأخذت أهازيج السعادة وأغاريد المنى تجمل لهما الأحلام وتقرب لهما الآمال .

وفى يوم ليس كمثله يوم مرض هذا الغلام وأخذت سهلة تمرضه وتطببه ولكن بلغ الكتاب أجله ففارقت روحه جسده .

وتجملت سهلة بالصبر واعتصمت بالإيمان واحتسبت إبنها فى سبيل الله . ثم قالت لأهلها : لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه حتى أحدثه أنا .

فلما جاء زوجها قربت له عشاءه وشرابه فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما

كانت تصنع له قبل ذلك ، ولبست له أجمل ثيابها . فلما شبع وروى وقع بها حتى إذا تأكدت من شبعه وريه وقضاء حاجته منها .

قالت سهلة : يا أبا طلحة أرأيت لو أن أهل بيت أعاروا عاريتهم أهل بيت آخرين فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يحبسوا عاريتهم ... ؟

قال : لا .

قالت : فاحتسب ابنك .

فغضب أبو طلحة غضباً شديداً ثم قال : تركتيني حتى تلطخت بما تلطخت به ، ثم تحدثينني بموت ابني ... ؟

وانطلق الرجل إلى رسول الله (ﷺ) فقال : يا نبي الله ألم تر إلى سهلة بنت ملحان صنعت كذا وكذا .

فقال رسول الله (ﷺ) بارك الله لكما في غابر ليلتكما .

يقول راوي الحديث :

فلقد شاهدت لها عشرة رجال كلهم حمل السيف وقاتل في سبيل الله .

وكان الرسول (ﷺ) يزورها في بيتها كثيراً ويصلي عندها تطوعاً ويعلمها الدعاء والاستغفار .

ولم يكن الرسول (ﷺ) يدخل بيت من بيوت المدينة غير بيتها وبيوت أزواجه رضوان الله عليهم .

فقيل في ذلك ... فقال :

" إني أرحمها قتل أخوها معي " .

وعندما قدمت للرسول (ﷺ) ابنها أنس ربت صلى الله عليه وسلم على كتفه ومسح على رأسه وقال : " اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له " .

قال أنس (ﷺ) : " فإنى لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً " .

وليس هذا كل ما يحفظه التاريخ عن سهلة بنت ملحان أو أم سليم كما كانت تدعى ، ولكنها كانت دائما مع الرسول (ﷺ) فى سلمه وحربه ، وفى غزواته وتنقلاته . ما تخلفت عن غزوة قط كما تقول عن نفسها .

وكانت مهمتها هى وأخواتها المؤمنات فى تلك الغزوات ليست سهلة دائما فهى تسقى الجرحى ، وتحمل قرب الماء للمقاتلين ، وتضمد الجروح ، وتستعمل خنجرها المعكوف إن كان هناك ما يدعو لذلك .

يقول أنس بن مالك (ﷺ) :

" لما كان يوم أحد والهول يحيط بالمسلمين من كل جانب رأيت عائشة أم المؤمنين وأم سليم ، وانهما مشمرتان أرى خرم سوقهما ينقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها فى أفواه القوم ، وترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغن فى أفواه القوم " .

وتمر الأيام وتكر الليالى ويتجه عشرة آلاف مقاتل إلى الكعبة بيت الله الحرام لتطهيرها من الشرك والكفر ، وأصنام الجاهلية ، وتم الفتح الأكبر ، وتقف أم سليم تردد مع الأخوة المؤمنين خلف الرسول (ﷺ) وهم يطهرون الكعبة ويحطمون آخر معاقل الكفر والطغيان :

لا إله إلا الله . صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله . ويتجه الرسول (ﷺ) إلى غزوة حنين بجيش لا يبلغ مداه البصر ، واغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال قائلهم :

" لن نهزم اليوم عن قلة " .

وكان لابد من درس لهذه الفئة المؤمنة التى تجاهلت أن النصر لن يكون بالقلة ولا بالكثرة ، ولكن النصر من عند الله ، ففروا هاربين ، وطارت قلوبهم شعاعاً .

وثبتت فئة قليلة من المؤمنين حول رسولهم الكريم يدافعون ويقاتلون ، فأين أم سليم فى هذا الهول الذى جعل الأبطال ولوا مدبرين ؟

إنها بجوار الرسول (ﷺ) تدافع وتقاتل ، تنافح وتجالد أعداء الله ، وأعداء دينه.

ويبصرها زوجها أبو طلحة الأنصارى وهى تتحفز بخنجرها ، فيقول لها : " ما تصنعين بهذا يا أم سليم " .

قالت : أريد إن دنا أحد من رسول الله (ﷺ) بجعت بطنه فذكر ذلك أبو طلحة لرسول الله (ﷺ) فقال :

" يا أم سليم إن الله تعالى قد كفى وأحسن " .

إن سهلة بنت ملحان أو أم سليم - كما كان يخاطبها رسول الله (ﷺ) نسيج وحده من النساء المؤمنات فى مدرسة الإسلام .

فأين حفيدات أم سليم ... ؟

أين التى تقبل الإسلام والإيمان مهراً لها ؟

أين التى ترفض الذهب لتقبل التقوى ؟

أين التىترفض الزينة وتقبل القيمة ؟

أين فتياتنا المسلمات اللاتى يتمذهبن بالإسلام ويتأدبن بأدب النبوة ويطعن الرسول فى قوله :

﴿ إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض ﴾ .

إنى ألمحهن على الأفق مقبلات يخففن الأعباء ، ويرضين الأزواج ويهدهدن الأطفال ويصنعن الرجال فى خير أمة أخرجت الناس .

تذييـل ...

الأسرة القائمة على الزواج العلني - الذى تخصص فيه امرأة بعينهـا لرجـل بعينـه ، هو أكمل نظام عرفته البشرية لأنه يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاتـه الحقيقيـة الناشـئة من كونه إنساناً خلق من أجل أجمل غاية وهى أن يكون خليفة الله فى أرضه .

وإذا كان الطفل الإنسانى يحتاج الى فترة رعاية أطـول مـن الفـترة الى يحتـاج إليهـا طفل أى حيوان آخر ، وإذا كانت غاية الميل الجنسى فى الحيوان تنتهـى عنـد تحقيـق الاتصال الجنسى والتناسل والإكثار ، فإنها فـى الإنسـان لا تنتهـى عنـد تحقيـق هـذا الهدف ، وإنما هى تمتد إلى هدف أبعـد هوالإرتبـاط الدائـم بـين الرجـل والمـرأة ليتـم إعداد الطفل الإنسانى وتربيته وتزويده برصيـد مـن التجـارب الإنسـانية التـى تؤهلـه للمساهمة فى حياة المجتمع الإنسانى ، والمشاركة فى حمل مسئولياته كاملة .

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هى المقوم الأول فـى حيـاة الرجـل والمـرأة فـى عـالم الإنسان ، وإنما هى وسيلة لاستمرار حبل الحياة .

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة ، هو النظام الوحيد الصحيح ، كما تجعل تخصيص امرأة واحدة لرجل واحد هو الوضع الصحيح الذى تستمر معه هذه العلاقة .

والذى يجعل الواجب ، لا مجرد الهوى أو اللذة هـو الحكـم فـى قيامهـا ، ثـم فـى معالجة كل مشكلة تقع فى أثنائها ، ثم عند فصم عقدتها عند الضرورة القصوى .

قال تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً** ﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية رقم ٣٥

وايضاً ﴿ **وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيما** ﴾[1] .

من هنا نعلم أن أى تهوين من شأن الأسرة أو تقليل من قيمة الأساس الذى تقوم عليه وهو الواجب ، لإحلال الهوى المتقلب ، والشهوة الجامحة محله ، هى محاولة آثمة لا لأنها تشيع الفوضى والفاحشة والانحلال فى المجتمع الإنسانى فحسب ، بل كذلك لأنها تحطم هذا المجتمع وتهدم الأساس الذى تقوم الأسرة عليه .

كما ندرك مدى الحكمة فى قول عمر بن الخطاب (ﷺ) لرجل أراد أن يطلق زوجته معللاً ذلك بأنه لم يعد يحبها :

" ويحك ألم تبن البيوت إلا على الحب ...؟ فأين الرعاية ...؟ وأين التذمم...؟." .

قال عمر ذلك مستمداً قولته هذه من توجيه الله سبحانه وتعالى :

﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾ .

يفعل الإسلام ذلك لأنه ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً ، وينظر الى العلاقة الزوجية على أنها مودة ورحمة وأنساً ، ويقيم هذة الآصرة على الاختيار المطلق ، كى تقوم على التجارب والتعاطف والتحاب .

ولهذا نجد أن جهوداً منظمة تبذل لانشاء موازين وقيم وتصورات للمجتمع غير تلك التى يريدها الله ، ولإقامة أسس للحياة والارتباطات غير تلك التى أقامها الله ولتوجيه الناس والحياة وجهة غير التى قررها الله .

والموجهون لهذه الجهود يحسبون أنهم ينتهون الى تحطيم قواعد المجتمع الإسلامى وتدمير حياة المسلمين فى الأوطان الإسلامية ، حتى لا تبقى أمامهم حواجز تصد أطماعهم القديمة فى هذه الأوطان ، بعد أن تنهار عقائدها ، وتنهار أخلاقها .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٣٠

والنظر الى الواقع فى حياة المجتمعات التى تحررت من قيود الدين والاخلاق والحياء وتحطيم أواصر الأسرة ، يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب . لوكانت هناك قلوب .

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة وحطم الحضارات الأغريقية ، وحطم الحضارة الرومانية ، وحطم الحضارة الفارسية وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ، وقد ظهرت آثار التحطيم فيما أذاعته تقارير الصحة العالمية عن مرض الإيدز ، وفقدان الخصوبة ، والذى يتخطى الملايين فى كل من أمريكا وفرنسا .

ويقول طبيب فرنسى يدعى الدكتور ليريه :

" إنه يموت فى فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهرى ، وما يتبعه من الأمراض الكثيرة فى كل سنة . وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حمى "الدق" " وهذه جريرة مرض واحد من الأمراض السرية عدا أمراض أخرى كثيرة .

والدولة الأمريكية يتناقص تعدادها بشكل خطير : ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسى ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعة الأطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسى العابر ، ومن ثم يقل الزواج ويقل التناسل .

أما فى الدول التى لا تزال فتية ، أو لم تظهر فيها آثار الدمار واضحة بعد ، فهذه نماذج مما يجرى فيها :

يقول صحفى ممن زاروا السويد بعد أن يتحدث عن " حرية الحب فى السويد " وعن الرخاء المادى والضمانات الاجتماعية فى مجتمعها الاشتراكى النموذجى .

" إذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هذا المستوى الاقتصادى الممتاز ، وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهذا الاتجاه الاشتراكى الناجح ، وأن نؤمن المواطن

ضد كل ما يستطيع أى عقل أن يتصوره من أنواع العقبات فى الحياة ... إذا وصلنا الى هذا الحلم البهيج الذى نسعى بكل قوانا وإمكانياتنا الى تحقيقه فى بلادنا الإسلامية فهل نرضى نتائجه الأخرى ...؟

هل نقبل الجانب الأسود من هذا المجتمع المثالى ، وهل نقبل حرية الحب وآثارها الخطيرة على كيان الأسرة ...؟

دعونا نتحدث بالأرقام ...

مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة ، وتكوين أسرة ، فإن الخط البيانى لعدد سكان السويد يميل الى الأنقراض ، ومع وجود الدولة التى تكفل للفتاة إعانة زواج ، ثم تكفل لطفلها الحياة المجانية حتى يتخرج من الجامعة ، فإن الأسرة السويدية فى الطريق الى عدم انجاب أطفال على الإطلاق .

يقابل هذا انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين ، وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين مع ملاحظة أن عشرين فى المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجن أبداً .

ولقد بدأ عهد التصنيع ، وبدأ معه المجتمع الاشتراكى فىالسويد عام ١٨٧٠م كانت نسبة الأمهات غير المتزوجات فى ذلك العام ٧فى المائة وارتفعت هذه النسبة فى عام ١٩٢٠ الى ١٦ فى المائة والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة .

وقد أجرت المعاهد العلمية عدة استفسارات عن " الحب الحر " فىالسويد فتبين فيها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج فى سن الثامنة عشرة . والفتاة فى سن الخامسة عشرة . وأن ٩٥ فىالمائة من الشبان فى سن ٢١ لهم علاقات جنسية !

" وإذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب ، فإننا نقول : أن ٧ فى المائة من هذه العلاقات الجنسية مع خطيبات ، و٣٥ فى المائة منها مع حبيبات ! و٥٨ فى المائة منها مع صديقات عابرات !

" وإذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل العشرين . وجدنا أن ٣ فى المائة من هذه العلاقات مع أزواج . و٢٧ فى المائة منها مع خطيب ! و٦٤ فى المائة منها مع صديق عابر !

" وتقول الأبحاث العلمية : إن ٨٠ فى المائة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و٢٠ فى المائة بقين بلا زواج !

" وأدت حرية الحب بطبيعة الحال إلى الزواج المتأخر ، وإلى الخطبة الطويلة الأجل. مع زيادة عدد الأطفال غير الشرعيين كما قلت .

" والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة ... إن أهل السويد يدافعون عن " حرية الحـــــب " بقولهم :

إن المجتمع السويدى ينظر نظرة احتقار إلى الخيانة بعد الزواج ، كأى مجتمع متمدن آخر ! وهذا صحيح لا ننكره ! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه إلى انقراض النسل . ثم الزيادة المروعة فى نسبة الطلاق .

" إن نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقا للإحصاءات التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد . والنسبة بدأت صغيرة ، وهى مستمرة فى الزيادة ... فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان - ارتفع هذا الرقم إلى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢ ، ثم ارتفع إلى ١١٤ فى عام ١٩٥٤ .

" وسبب ذلك أن ٣٠ فى المائة من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة . والزواج بحكم " الضرورة " لا يدوم بطبيعة الحال كالزواج

العادى . ويشجع على الطلاق القانون السويدى فلا يضع أية عقبة أمـام الطـلاق إذا قرر الزوجان أنهمـا يريـدان الطـلاق . فـالأمر سـهل جـداً ، وإذا طلـب أحدهمـا الطلاق . فإن أى سبب بسيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق !

" وإذا كانت حرية الحب مكفولة فى السويد ... فهنـاك حريـة أخـرى يتمتـع بهـا غالبيـة أهـل السـويد ... إنهـا حريـة عـدم الإيمـان بـا لله ! لقـد انتشـرت فـى السـويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق . وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضاً . المدرسون فى المعاهد يدافعون عن هـذه الحريـة ويبثونهـا فـى عقـول النشء والشباب .

" والجيل الجديد ينحرف ... وهذه ظاهرة جديد تهدد الجيـل الجديـد فـى السـويد وباقى دول اسكندنافيا . إن افتقادهم للإيمان يجرفهـم إلى الانحـراف ، وإلى الإدمـان على المخدرات والخمور ... وقد قدر عدد أطفال العائلات التى لها أب مدمـن بحـوالى ١٧٥ ألفاً . أى ما يوازى ١٠ فى المائة من مجموع أطفال العائلات كلها .

وإقبال المراهقين على إدمـان الخمـر يتضـاعف ... إن مـن يقبـض عليهـم البوليـس السويدى فى حالة سكر شديد من المراهقين والمراهقـات بـين سـن ١٥ و١٧ يـوازى ثلاث أمثال عدد المقبوض عليهم بنفس السـبب منـذ١٥ عامـاً . وعـادة الشـرب بـين المراهقين والمراهقات تسير من سئ إلى أسوأ ... ويتبع ذلك حقيقة رهيبة.

" إن عشـر الذين يصلون إلى سـن البلـوغ فـى السـويد يتعرضـون لاضطرابـات عقلية ! ويقول أطباء السويد : إن ٥٠ فى المائة من مرضاهم يعـانون مـن اضطرابـات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية . ولاشك أن التمادى فـى التمتـع بحريـة عـدم الإيمـان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعى تفكك الأسرة . ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ... "

والحال فى أمريكا لا تقل عن هذه الحال . ونذر السوء تتوالى . والأمة الأمريكيـة فى عنفوانها لا تلتفت للنذر . ولكن عوامل التدمير تعمل فى كيانها ، على الرغـم

من هذا الرواء الظاهرى ، وتعمل بسرعة ، مما يشئ بسرعة الدمار الداخلى على الرغم من كل الظواهر الخارجية !!!

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم ، لا لأنهم فى حاجة إلى المال . ولكن لأنهم بهم شذوذاً جنسياً ، ناشئاً من آثار الفوضى الجنسية السائدة فى المجتمع .

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكى يده على عصابة ضخمة ذات فروع فى مدن شتى . مؤلفة من المحامين والأطباء — أى من قمة الطبقة المثقفة — مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة فى حالة تلبس بالزنا ، وذلك لأن بعض الولايات لاتزال تشترط هذا الشرط لقبول توقيع الطلاق! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هذه العصابة متلبساً ، وهى التى أوقعته فى حبائلها !

كذلك من المعروف أن هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزواجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين ! وذلك فى مجتمع لا يدرى الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته فى الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ! ولا تدرى الزوجة إن كان زوجها الذى خرج فى الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أوأشد جاذبية ! مجتمع تعيش البيوت فيه فى مثل هذا القلق الذى لا يدع عصباً يستريح !!!

وأخيراً يعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن ستة من كل سبعة شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقى الذى يعيشون فيه .

وقد كتبت إحدي المجلات الأمريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول :

" عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض ، أولها : الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحة ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة . والثانى الأفلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية فى بابه .

والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء ، الذى يظهر فـى ملابسـهن ، بـل فى عريهن ، وفى إكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام ... هذه المفاسد الثلاث فينا إلى الزيـادة والانتشـار بتـوالى الأيـام. ولابـد أن يكـون مآلهـا زوال الحضارة والاجتماع النصرانيـين وفناءهمـا آخـر الأمـر . فـأن نحـن لم نحـد مـن طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ، ومـن تبعهـم مـن سـائر الأمم ، الذين قد أوردوهم هذا الأتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مـع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء "[1] .

والذى حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثـة ، بـل استسـلمت لها تماماً وهى تمضى فى الطريق الذى سار فيه الرومان !

ويكتب صحفى آخر عن موجة انحراف الشـباب فىأمريكـا وبريطانيـا وفرنسـا ، ليهون من انحلال شبابنا ! يقول :

" انتشرت موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات مـن شـباب أمريكـا . وأعلـن حاكم ولاية نيويورك ، أنه سوف يجعل هذا الانحـراف علـى رأس برنـامج الإصـلاح الذى يقوم به فى الولاية :

" وعمد الحاكم إلى إنشاء المزارع و" الإصلاحيات" التهذيبية والأندية الرياضية ... الخ ."

" ولكنه أعلن أن علاج الإدمان على المخدرات ـ التى انتشرت بصفة خاصـة بـين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين ! ـ لا يدخل فى برنامجه ، وأنـه يترك أمره للسلطات الصحية !

" وأما فى انجلترا فقد كـثرت فىالعـامين الأخـيرين جرائـم الاعتـداء علـى النسـاء وعلى الفتيات الصغيرات فى طرق الريف . وفى معظم الحالات كان المعتدى أوالمجـرم

(١) نقلا عن كتاب الحجاب للمودودى ص ١٢٩ ، ١٣٠

غلاماً مراهقاً . وفى بعضها كان المجرم يعمد إلى خنق الفتاة أو الطفلة ، وتركها جثة هامدة ، حتى لا تفشى سره ، أو تتعرف عليه ، إذا عرضه عليها رجال البوليس .

" ومنذ شهرين اثنين كان شيخ فى طريقه إلى القرية ، عندما أبصر على جانب الطريق - وتحت شجرة - غلاماً يضاجع فتاة...

" واقترب الشيخ منهما ، ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه ، وقال له : إن ما يفعله لا يجوز ارتكابه فى الطريق العام !

" ونهض الفتى ، وركل الشيخ بكل قوته فى بطنه ... ووقع الشيخ .

" وهنا ركله الغلام فى رأسه بحذائه ... واستمر يركله بشدة بقسوة حتى تهشم الرأس !

" وكان الغلام فى الخامسة عشرة ، والفتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ! "

وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التى تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ فى المائة من الشعب الأمريكى مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيويات كالبنسلين والاستربيتومايسين !)

وكتب القاضى لندسى بمدينة "دنفر" أنه من كل حالتى زواج تعرض قضية طلاق !

وكتب الطبيب العالمى ألكسيس كاريل فى كتابه : "الإنسان ذلك المجهول":

" بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية . الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبى والقوى العقلية ... ففى بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون فى المصحات على عدد المرضى الموجودين فى جميع المستشفيات الأخرى . ومثل ذلك ، فإن الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ فى الازدياد . وهى أكثر العناصر نشاطاً فى جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم

الأسر ... إن الفساد العقلى أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية ، التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ! " ...

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة ، فى جاهليتها الحديثة ، من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة . المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الإنسان الضعيف ، وصيانته من نزواته ، وحمايته من شهواته ، وهدايته إلى الطريق الآمن ، والوصول به إلى التوبة والصلاح والطهارة :

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ .

قال الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ٨٤﴾

سورة الأعراف الآيات ٨٢.٨٣.٨٤

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات في : **قوم لوط وامرأته .**

قال ذلك الامام القرطبي في تفسيره ٧ : ٢٤٦

وقاله ابن كثير في التفسير ٢ : ٢٣٠ - ٢٣١

وقاله صاحب الدر المنثور ٣ : ١٠٠ - ١٠١

وقاله الفخر الرازي في التفسير الكبير ٧ : ١٧٦

فمن تكون امرأته ... ؟

امرأة لوط عليه السلام

يقف كتّاب السنة موقفاً عدائياً منها فلا يذكرونها من قريب أو بعيد .

فمن هي ... ؟ وما أسمها ... ؟ وأين عاشت ... ؟ ومتى اقترنت بزوجها عليه السلام ... ؟

أكان ذلك قبل الرسالة أم بعدها ... ؟

كل هذه الأسئلة تبقى حائرة بالنسبة لزوج لوط عليه السلام .

أما هو فيسمى لوط بن هاران بن تارج ابن أخى ابراهيم عليه السلام .

ويبدأ التاريخ فى تسجيل أعماله ، ويعطى صورة واضحة عنه - عندما شخص من أرض بابل مع عمه ابراهيم مؤمناً به متبعاً له على دينه ، مهاجراً معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور .

و لم يطل المقام بهما فى أرض الشام فرحلوا إلى مصر ، وكان ملكها فى ذلك الوقت سنان بن عازان . ثم تفرقت بهم السبل .

فنزل ابراهيم عليه السلام أرض فلسطين .

ونزل لوط الأردن ، فبعثه الله ألى أرض سدوم وما يليها ، وكانوا أهل كفر وفواحش ، ولقد عبر القرآن الكريم عن حالتهم هذه بقوله :

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٨٠ - ٨١

قال عمرو بن دينار ما كـان يُـرى ذكر على ذكـر حتـى كـان قـوم لـوط عليـه السلام.

وقال تعالى :

﴿ أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾[1] .

يأتون الرجال ، وهى فاحشة شاذة قذرة تدل على انحراف الفطرة وفسـادها مـن أعماقها ، فالفطرة قد تفسد بتجاوز حد الاعتدال والطهارة مع المرأة ، فتكون هـذه جريمة فاحشة ، ولكنها داخلة فى نطاق الفطرة ومنطقها ، فأما ذلك الشذوذ الآخـر فهو انخلاع من فطرة الأحياء جميعاً .

ويقطعون السبيل : فينهبون المـال ، ويروعـون المـارة ، ويعتـدون علـى الرجـال بالفاحشة كرهاً . ويأتون فى ناديهم المنكـر ، ويأتونـه جهـاراً وفـى شـكل جمـاعى متفق عليه لا يخجل بعضهم من بعض .

روى أبو صالح عن أم هانئ قالت : سـألت رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم عن هذه الآية فقال :

" كانوا يجلسون على الطريق فيحذفـون مـن مـر بهـم ، ويسـخرون بـه ، وهـو المنكر الذى كانوا يأتونه " .

وكان لوط ينهاهم عن ذلك ويدعوهم بالتوبة منه ويخوفهم من العذاب الأليم فـلا يزجرهم عن ذلك وعده ، ولا يزيدهم وعظه إلا تمادياً واستعجالاً بعذاب الله تعالى: ولذا قالوا :

﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾[2] .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٩

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٧٠

حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم فقال :

﴿ **ربى انصرنى على القوم المفسدين** ﴾[1] .

فاستجاب الله تعالى لعبده لوط وأرسل الملائكة لاهلاكهم ، فأقبلوا مشاة فى صورة شباب مرد حسان حتى نزلوا على ابراهيم عليه السلام فاستضافهم فلما فرغوا من ذلك أخبروا ابراهيم عليه السلام أن الله بعثهم لاهلاك قوم لوط ، فحاجهم ابراهيم فى ذلك ... قال الله تعالى :

﴿ **فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط** ﴾[2] .

ما نوع الجدل الذى استعمله ابراهيم عليه السلام ...؟

ولماذا الجدل وهو يعلم من هم قوم لوط ... ؟

أخاف على المؤمنين فى هذه القرية ...؟ إن بعض الروايات التاريخية تؤكد ذلك بقوله للملائكة : أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن ... ؟

قالوا : لا .

قال : أفتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ... ؟

قالوا : لا .

قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ... ؟

قالوا : لا .

قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمن ... ؟

قالوا : لا .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٣٠

(٢) سورة هود آية رقم ٧٤

عندها نزل قول الله تعالى ينهى ابراهيم عن الجدل بقوله :

﴿ يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾[1] .

ثم مضت رسل الله نحو سدوم فلما انتهوا إليها لقوا لوطاً عليه السلام فى أرض له يعمل فيها ، فأتوه فقالوا : إننا ضيفوك الليلة .

فانطلق بهم وسار بهم ساعة ثم التفت إليهم قائلا :

أو ما بلغكم أمر هذه القرية ... ؟

قالوا : وما أمرها ...؟

قال : أشهد بالله أنها لشر قرية فى الأرض ، وما أعلم أناساً أخبث منهم . فدخلوا معه منزله ، وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه . وخاف عليهم من قومه فلذلك قوله تعالى :

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾[2] .

قال السدى باسناده :

" لما خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا مدينة سدوم لقوا بنت لوط عليه السلام تستسقى الماء لأهلها . وكان له ابنتان اسم الكبرى ريثا والأخرى غيثاً . فقالوا لها :

يا جارية هل من منزل ... ؟

---

(١) سورة هود آية رقم ٧٦

(٢) سورة هود آية رقم ٧٧

قالت : نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ، لأنها خافت عليهم من قومها ، ثم أتت أباها فقالت :

يا أبتاه أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك . وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالاً وقالوا له خل عنك إضافة الرجال فذلك قوله تعالى :

﴿ **أو لم ننهك عن العالمين** ﴾ .

فجاء لوط إلى منزله ما يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط ، وعندها تظهر امرأته مرة أخرى على مجرى الأحداث .

لقد سمعت هذه المرأة ما دار بين لوط وابنته ، وأحست أن هؤلاء الأضياف صيد ثمين لقومها .

وعندما شاهدتهم ، ورأت نضارة وجوههم ، وجمال صورتهم ، أسرعت إلى قومها كعادتها تدعوهم إلى فعل الفاحشة فى هؤلاء الأضياف .

إنها المرأة السيئة ، التى تنفر من نصائح زوجها الذى يأتيه الوحى من السماء وتقف ضد كل ما يدعو إليه ، وتهدأ نفساً وتقر عيناً ، عندما ترى هذه الأفعال القبيحة ، والفطرة المقلوبة ، عند أهلها وزويها .

قال أبو حمزة الثمالى : بلغنا أن الأشارة التى كانت بين امرأة لوط وقومها إذا حضرت إليهم الضيفان أن ترسل رسولها إلى قومها فيقول : هيئوا لنا ملحاً تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط .

قالوا : فما أخذت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يسرعون ويهرولون فلما رآهم ، وشاهد ما فيهم من سعار ، وشهوات متأججة قال :

﴿ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منك رجل رشيد ﴾[1] .

ثم تابع حديثه قائلا :

﴿ هؤلاء بناتى هن أطهر لكم قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾[2] .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : المراد نساء أمته . قال الفخر الرازى : ويدل عليه وجوه :

الأول : أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المرءوة فكيف بأكابر الأنبياء ... ؟

الثانى : وهو أنه قال **﴿ هؤلاء بناتى هنَّ أطهر لكم ﴾** فبناته اللواتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل .

الثالث : أنه عليه السلام ما دعا القوم إلى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان .

وقيل : إن كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته ، وهذا كان فى أول الإسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب ثم نسخ ذلك[3] بقوله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ﴾[4] .

فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب والتعب بسببهم قالوا له :

---

(١) سورة هود آية رقم ٧٨

(٢) سورة هود آية رقم ٧٨

(٣) راجع التفسير الكبير ٩ : ٣٤

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٢١

﴿ إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾[1]

لقد خرجوا من تلك القرية وتركوا أموالهم فنهوا أن يتعلقوا بشئ منها وعدم الإلتفات إليها .

﴿ إلا امرأتك ﴾ .

فهل خرجت معهم ، ولم تعلم بالنهى عن الالتفات ... ؟

أم أن النبى كان عاماً ... ؟ ولكن هذه المرأة ما كادت تسمع العذاب النازل على قومها حتى قامت بالإلتفات ... ؟

يقول الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : لقد التفتت وقالت : واقوماه فأدركها حجر فقتلها .

وصدق ربى فى قوله : **﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾** .

ثم ماذا ... ؟ قال تعالى : **﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾**[2] .

ولقد صدق قول الشاعر فى قوله :

راحوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام إن الله تعالى قال ...

---

(١) سورة هود آية رقم ٨١

(٢) سورة هود آية رقم ٨٢ - ٨٣

عنك : ﴿ **ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾[1] .

فأخبرنى عن قوتك ... ؟

قال : يا محمد رفعت قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحى فى الهواء حتى سمعت ملائكة السماء أصواتهم ، وأصوات الديكة ثم قلبتها ظهراً لبطن .

قال : فأخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **مطـــــاع** ﴾ .

قال : إن رضوان خازن الجنان ، ومالكاً خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها .

قال : فأخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **أميـــــن** ﴾ .

قال : إن الله تعالى أنزل من السماء مائة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأتمن عليها غيرى .

هذا وبالله التوفيـــــق .

---

(١) سورة التكوير آية رقم ٢١

تذييـل ...

من سنن الله الكونية أن جعل الإزدواج قواماً لجميع الكائنات حتى يكمل بعضها بعضاً ، وتتوالى آثارها الناتجة عن هذا الازدواج فى تعمير الكون وتحقيق دور الخلافة فى الأرض قال تعالى :

﴿ سبحان الذى خلـق الأزواج كلهـا مما تنبـت الأرض ومـن أنفسـهم وممـا لا يعلمون ﴾[1] .

وهذه الآية تدل على أن كل الأحياء ، وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ويتم التلقيح بينها إما عن طريق الرياح التى تهب فى موسم الإخصاب قال الله تعالى :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾[2] .فهى بهبوبها تحمل طلع النبات الذكر إلى النبات الأنثى وبهذا يتم التلقيح وإما عن طريق الحشرات والفراشات التى تنتقل من زهرة إلى أخرى فتحمل أرجلها وأجنحتها حبيبات اللقاح .

وإما أن يتم عن طريق الأمطار التى تهطل فى هذه المواسم فتحمله معها إلى شتى النباتات قال تعالى :

﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾[3] .

وبعض أنواع النبات تحمـل فـى ذاتهـا الـزوج الآخـر فهـى تضـم أعضـاء التذكير والتأنيث مجتمعة فى زهرة واحدة أو متفرقة قال تعالى :

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغـير

---

(١) سورة يس آية رقم ٣٦

(٢) سورة الحجر آية رقم ٢٢

(٣) سورة طه آية رقم ٥٣

صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

وهذا النبات كائن حى له روح كما كان يقول الفيلسوف أرسطو فى دولة اليونان ، واستمر الوضع على ذلك حتى كان القرن الثالث عشر أعلن "كارل فون لينى" أن النبات له مواصفات الحيوان والإنسان إلا أنه ليس له قدرة على الحركة .

وفى القرن التاسع عشر أعلن "دارون" أن النباتات المتسلقة تتمتع باستقلالية الحركة . وأكد ذلك "راؤول فرانسيه" بقوله : إن النبات يحرك جسمه بحرية ورشاقة، وبشكل لا يقل عن الإنسان أو الحيوان .

ومن حركته سموق فروعه إلى أعلى وزحف جذوره فى باطن التربة إلى مسافات بعيدة فإذا اعترضها حاجز صخرى ، أو حائط دارت خلفه حتى تصل إلى بغيتها .

وعلماء النبات فى هذه الآونة يقدمون الأدلة القاطعة التى حصلوا عليها عن طريق التجارب : أن النبات يرى ويسمع ، ويلمس ويتذوق ، ويشم بحساسية فائقة . ليس هذا فحسب بل تراهم يقولون : إن النبات يستطيع أن يقرأ أفكار البشر والحيوانات ويستجيب لعواطفهم ، ويدافع عن نفسه ضد من يريد الضرر به .

ومن الأشياء التى رصدها العلماء عن النخلة الأنثى ، أنه إذا كان يجاورها ذكر ، وعَمَلُوا على قطعه حزنت عليه حزنا شديداً وتعبر عن حزنها هذا بعدم حملها للثمار ، وقد يستمر هذا الحزن سنة أو أكثر ولا تعود إلى طرح الثمار إلا إذا جاء صاحبها مهدداً بأنه سيعمل على قطعها إن لم تثمر فى العام القابل .

وإذا كان ذلك كذلك فالازدواجية أوجدها الله فى عالم النبات لأنه كائن حى ككل المخلوقات الأخرى . التى تعمل بمشيئة الله وقدرته على استمرار نوعها

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٤

وإمتداده عبر دروب الزمن .

والنبات ككل المخلوقات الأخرى تخاف الله وتطيعه فى أوامره وتسبح له أثناء الليل وأطراف النهار قال تعالى :

﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] .

وإنه لمشهد فريد حين يتصور القلب كل حصاة ، وكل حجر ، وكل حبة وكل ورقة ، وكل زهرة وكل ثمرة ، وكل نبته وكل شجرة ، وكل حشرة وكل زاحفة ، وكل حيوان وكل إنسان ، وكل دابة على الأرض ، وكل سابحة فى الماء والهواء كلها تسبح لله وتتوجه إليه فى علاه .

ولكن لما لا نفقه تسبيحهم ...؟

ولماذا لا نسمع تراتيل أصواتهم ... ؟

لا يحدث هذا لأننا محجوبون بصفاقة الطين ، فغشى على بصائرنا فلا نرى . وأغلق على آذننا فلا نسمع .

ولكن حين تشف الروح وتنجلى البصائر فإنها تزال من أمامها الحجب والمساتير فترى ما لم تكن ترى ، وتسمع ما لم تكن تسمع . وعندها يتحول الإنسان من ترابيه الأرض إلى شفافية السماء . فيكون الله تعالى سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها كما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه الامام البخارى فى صحيحه .

وهذا النبات ملتزم بالضوابط والموازنات التى وضعها الله سبحانه وتعالى بالنسبة لخلقه جميعاً . فإذا تعدى النبات أو الجماد أو الإنسان ما قدر له وجد أمامه جند الله

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٤

لتصده وترده عن غلوائه .

والواقعة الآتية مثل بارز على أهمية تلك الضوابط . فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبار فى استراليا كسياج وقائى . ولكن هذا الزرع مضى فى سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة انجلترا ، وزاحم أهل المدن والقرى وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة الأخرى . و لم يجد الأهالى وسيلة تصده عن الانتشار . وصارت استراليا فى خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت يتقدم فى سبيله دون عائق.

وطاف علماء النبات والحشرات بنواحى العالم يبحثون عن وسيلة توقف جيش الأحتلال هذا . وأخيراً وجدوا حشرة شرهة لاتعيش إلا على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره ، وهى سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعوقها فى استراليا ، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار وقضت على كل أسلحته ، ثم ذهبت جيوش هذه الحشرة من حيث أتت و لم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية ، تكفى لصد الصبار عن الأنتشار إلى الأبد .

وصدق ربى فى قوله :

﴿ و لله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾[1] وأيضا قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾[2] .

وهذه واقعة أخرى للضوابط والموازنات التى وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون والتى تدل دلالة قاطعة على قدرة الله تعالى وأن كل شئ عنده بمقدار . وصدق ربى فى قوله :

﴿ وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴾[3]

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٧

(٢) سورة المدثر آية رقم ٣١

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٢

﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ﴾[1]

لقد كان الاستعمار البريطانى يرابط على أرض الهند ، وكان الجنود لا يجدون شيئاً يتخلصون به من فراغهم القاتل وأيامهم الرتيبة سوى العبث بمقدسات البلاد او الاطاحة ببعض الرقاب .

وفى يوم من الأيام أخذ أحد الجنود أجازته وقرر أن يقضيها فى بلدته انجلترا ولكن ماذا يأخذ من الهدايا لعروسه من هذه البلاد ؟ وبعد أن أعياه التفكير قرر أن يأخذ جلد ثعبان لما فيه من نقوش زاهية وأشكال هندسية بديعة .وعندما هبطت به الطائرة على أرض بلده كان يضع هذا الجلد على كتفه وكأنه لوحة فنية تبهر العيون، ولمح الجلد هذا أحد تجار الأحذية فقرر أن يستولى عليه مهما كان الثمن . وفعلاً تحقق له ما أراد . وصنع منه مجموعة من أحذية السيدات . وماكاد هذا الصنف الجديد ينزل إلى سوق الأحذية ، حتى تهافتت السيدات على شرائها بأثمان باهظة ، وتكاثر الطلب عليه الأمر الذى جعل تجار الجلود يتجهون إلى أرض الهند لشراء العديد منها وانتشر هواة الصيد يقتنصون الثعابين ويسلخون جلودها ويبيعونها بمثل وزنها ذهباً .

وما هى إلا فترة وجيزة من عمر الزمن حتى تناقصت الثعابين إلى درجة كبيرة بل كادت أن تتلاشى بالكامل .

وكانت الهند فى ذلك الوقت تزرع أراضيها بحقول القمح . وعندما اقترب موسم الحصاد . وذهب الفلاحون لجمع محصولهم وجدوا أن الفئران قد التهمته كله وكانت هذه ظاهرة عجيبة لم تحدث لهم من قبل ذلك ، وأخيراً أهتدوا إلى أسباب الكارثة . لقد كانت الثعابين ـ وهى من جند الله ـ تتغذى على الفئران فكانت تقل ولا تكثر ولهذا كانت تسلم لهم حقول القمح ولكن عندما انقرضت الثعابين ـ

(١) سورة القمر آية رقم ٤٩

انتشرت جيوش الفئران ، فقضت على الغذاء الأساسى الذى كانوا ينتظرونه . وصدق ربى فى قوله :

﴿ وكل شئ عنده بمقدار ﴾[1] .

وأيضـــاً

﴿ وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴾[2] .

فإذا تدخل الإنسان بطمعه وجشعه لتغيير هذا النظام عاجله ربه بالعقوبة وصدق ربى فى قوله :

﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾[3] .

وإذا كانت الازدواجية هذه بالنسبة للنباتات فهل نجدها أيضاً فى دنيا الجمادات والمائعات ... ؟

لقد أثبت العلماء أن الجماد يتكون من الذرات ، وأن كل ذرة مزدوجة تتكون من نواة (بروتون) وكويكب (الكترون) يدور حولها .

وأن النواة كهربـاء موجبة والكويكب كهرباء سالبة . فكل ما فى الجماد مزدوج ولا يتم كيانه إلا بهذا الازدواج .

والعجيب فى الأمر أن الموجب إذا التقى بالسالب فى عالم الكهربـاء أنتج الضوء والحرارة ، وسير المركبات والطائرات ، وفجر البحار وشق الأنهـار وتوالت الأنتاجية له والتى لا تقف عند حد .

فإذا التقى السالب ، أو الموجب بالموجب صار عقيماً لا ينتج شيئاً فلا يرسل دفئاً

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٨

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٢

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٣١

ولا يبعث ضوءاً .

وعالم المغناطيسية كالكهرباء تماماً مكون من قطب سالب وآخر موجب فإذا إلتقى السالب بالموجب انجذب كل منهما إلى صاحبه . أما إذا كان سالباً وسالباً أو موجباً وموجباً فإنهما يتنافران ولا يلتقيان ويتباعدان ولا يقتربان .

يحدث هذا فى عالم الجماد ، ويحدث أيضاً فى عالم النبات والحيوان ولا يحدث العكس إلا فى عالم الإنسان عندما تفسد الفطرة وتنتكس الجبلة وتعيش فئة من البشر فى بؤرة التعفن ، والأنسلاخ من أبسط قواعد الآدمية . لقد كان من نتائج انجذاب الموجب مع الموجب والسالب مع السالب فى عالم الإنسان أن تفشى ما يسمى بالطاعون الجديد .

أو طاعون الشواذ .

أو القنبلة الموقوتة فى جسم الإنسان .

وأخيراً الاسم الحركى له "الإيدز" .

لقد سمو (الإيدز) بطاعون الشواذ ونفس هذه التسمية هى التى أطلقها الرسول صلى الله عليه وسلم - منذ أربعة عشر قرناً حيث قال :

" ما ظهرت الفاحشة فى قوم إلا أصابهم الله بالطاعون " .

نعم طاعون الشواذ أو الإيدز .

الذى يقول عنه الدكتور "كليفورد لين" إن ديناميكية التكاثر فى هذا الفيروس تعد من أعظم التأثيرات التى رأيتها فى علم "البيولوجيا" وهذا يفسر الأثر التخريبى أو التدميرى لهذا المرض .

ذلك أن هذا الفيروس عندما تختفى من أمامه خلايا (آ) المساعدة عند تقدم المرض يعمل على تدمير بيته وتدمير الخلايا الباقية أيضاً .

ويظل المريض إزاء ذلك بمنأى عن الشفاء .

إنها عملية تدمـــــــير .

تدمـــــــير لكل الخلايا .

وتدمـــــــير لبنية المجتمع قاطبة الذى يسمح لهؤلاء الشواذ بالاقامة فيه .

وهنا تبرز عظمة الإسلام وحكمته فيجعل الزنى واللواط من أبشع الجرائم وجعل الحدود المتعلقة بهما فى مكانهما الصحيح .

وتبرز عظمة الإسـلام أيضـاً فـى تصويـر عقـاب المجتمـع الـذى ينسـاق وراء هـذه الشهوة القبيحة حيث يدمرهم تدميراً قال تعالى :

﴿ وإن لوطـاً لمـن المرسـلين (١٣٤) إذ نجينـاه وأهلـه أجمعـين إلا عجـوزاً فـى الغابريـن (١٣٥) ثم دمرنا الآخرين (١٣٦) ﴾[1] .

وهى صورة للتدمير الكامل الذى يقلب كل شئ ويغير المعالم ويمحوها .

ويقول الله أيضاً :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنـا عاليهـا سـافلها وأمطرنـا عليهـم حجـارة مـن سـجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين بعيد ﴾[2] .

وهذه الصورة المقلوبة أشبه بالفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمـة الإنسـان إلى درك الحيوان بل إن كثيراً من الحيوانات تعف ملتزمة عند حدود فطرتها ومن سـنوات قليلة فى البلاد التى تسمى ببلاد التمدن والتحضر خرجت المسيرات والمظاهرات التى يقودها الشواذ جنسياً فى أوربا وأمريكـا مطـالبين ببعـض الحقـوق التشـريعية والمدنيـة الخاصة بهم وأمكنهـم أن ينـالوا بعـض الحقـوق المتعلقـة بالحريـة الشـخصية وممارسـة الفحشاء جهراً فى حماية القانون .

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٣٤ - ١٣٦

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٤

وتحقق لهم ما أرادوا وأمكنهم بذلك أن يستغلوا قانون البشر الذى يخطئ ويصيب، ويجامل ويحابى ، ويغفل وينسى فى تحقيق اغراضهم . فهل أمكنهم الافلات من قانون ا لله تعالى ؟ أو من عقاب السماء ؟ .

لا . ليس فى استطاعتهم ذلك . لقد حاصرهم ا لله تعالى وقضى على كل مقاومتهم عن طريق " الإيدز" الذى لا فكاك منه ولا مهرب من شباكه ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾[1] .

وإذا كانت الازدواجية فى عالم الجماد قد شملت الذرة والمغناطيسية فنجد الازدواجية أيضاً فى ملح الطعام الذى يتكون من صوديوم وكلوريد والأول شديد الاشتعال ، والثانى غاز سام ـ إنه الموجب والسالب ونحن لا نستطيع بأى حال من الأحوال الإستغناء عن ملح الطعام إلا فى الضرورات الملحة التى تفرض علينا ذلك .

وهذا الشئ الذى نحبه لا نقبله إلا عن طريق الازدواجية .

فإذا انفصلا أشعل أحدهم الحرائق ، ودمر المنشئات ، وكان الآخر سماً قاتلاً لكل من يلمسه أو يقترب منه .

والازدواجية نجدها أيضاً فى الماء . الماء الذى يعد أول شئ برز فى هذا الكون قال تعالى :

﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء** ﴾[2] .

والماء أيضاً هو أساس تكوين الخلية الأولى فى النبات والحيوان والإنسان .

قال تعالى :

---

(١) سورة الفجر الآية ١٤

(٢) سورة هود آية رقم ٧

﴿ **وجعلنا من الماء كل شئ حى** ﴾[1] .

وقال أيضاً :

﴿ **والله خلق كل دابة من ماء** ﴾[2] .

وقال :

﴿**وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً** ﴾[3] .

هذا الماء يتكون من الهيدروجين والأكسجين .

والأول مشتعل والثانى يساعد على الأشتعال .

الأول موجب والثانى سالب .

وبغير تزاوجهما ما كان هناك نبات ولا حيوان ولا إنسان ولإختفت الحياة جملة من على هذا الكوكب .

والنتيجة أن كل ما فى الكون محتاج إلى ما يكمله ، وانفرد بالوحدانية المطلقة الله وحده فإنه غير محتاج إلى ما يكمله . قال تعالى :

﴿ **قل هو الله أحد** (١) **الله الصمد** (٢) **لم يلد ولم يولد** (٣) **ولم يكن له كفواً أحد** (٤) ﴾[4] .

وكل ما نشاهده أو ندركه خاضع لهذا الأزدواج من ليل ونهار ، وحياة وموت، وجسم وروح ، وأرض وسماء ، وطاقة ومادة . حتى الصفات والأحوال من قوة وضعف ، ورضى وغضب ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وخير وشر ،

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٣٠

(٢) سورة النور آية رقم ٤٥

(٣) سورة الفرقان آية رقم ٥٤

(٤) سورة الإخلاص كاملة

ونبات وجماد ، وأرض وسماء ، وكواكب ونجوم ، وناطق وصامت ، وحيوان وإنسان .

نعم الإنسان الذى خلقه الله تعال من طين الأرض ونفخة من روحه فأصبح مكوناً من مادة وطاقة ، وظهر فيه عنصر الازدواجية قال تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾(١) .

وقال أيضاً :

﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾(٢) .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى : قد فطرنا من عنصر تغلب فيه طبيعة المادة فإن الله سبحانه وتعالى ـ خلق عالمين آخرين من عنصر الطاقة ـ هما :

عالم الملائكة المخلوقين من النور .

وعالم الجن المخلوق من النار .

والإنسان ينقاد لهذين العالمين المزدوجين . عالم الملائكة الممثل للخير وعالم الجن الممثل للشر .

فالإنسان يقضى حياته فى صراع عنيف بين هذين الجانبين ، فإذا نجح فى هذا الصراع وفاز فى هذا الابتلاء فهو من المفلحين ، وإذا فشل وانجذب إلى الشر فقد خسر نفسه ودنياه وذلك هو الخسران المبين .

والملائكة تتنزل على المؤمنين الأتقياء . قال تعالى :

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٤٥

(٢) سورة السجدة آية رقم ٧

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون (٣٠) نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾[١] .

والشياطين تتنزل على الفجار الآثمين قال تعالى :

﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾[٢] .

ومن هنا كان الإنسان مبتلى بحافزين قويين هما حافز الخير وحافز الشر والسعيد من هداه الله والشقى من أضله الله تعالى :

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[٣] .

يقول صاحب الظلال :

" إن الابتلاء بالخير أشد وطأة . لأن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير " .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة . ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل ، ولكن قليلون هم الذين يصبرون على الثراء وما يغرى من متاع وما يثير من شهوات وأطماع .

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ويصبرون على التهديد

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٣١

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٢

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٣٥

والوعيد فلا يرهبهم . ولكن قليلون هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء .

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال وبالاسترخاء الذى يقعد الهمم ويذل الأرواح .

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها . أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينميها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة .

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء[1] .

ومن مظاهر الازدواج ، أن لكل إنسان قريناً من الملائكة يحفزه إلى الخير وقريناً من الشياطين يدفعه إلى الشر .

روى الامام مسلم والامام أحمد عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم :

" ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ... ؟

قال : وإياى إلا إن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير " .

وروى الترمذى وابن حبان والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم : " إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان " .

---

(١) راجع فى ظلال القرآن الكريم ٤ : ٢٣٧٧ - ٢٣٧٨

وهذا الإنسان الذى خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته لم يخلق عبثاً وإنما وجد لغاية ، وهى عبادة الله تعالى :

﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾[1] .

واهبط إلى الأرض ليقوم بدور الخلافة .

﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[2] .

وحياته رحلة قصيرة ، وأيامه معدودة فوق هذا الكوكب الأرضى وأجزاؤه وتركيباته وأطرافه صنعت لتلائم هذا الدور وتتناسب مع تلك المدة فهو لا يبقى فى رحلته أكثرمما قدر له ، وإلا تلفت أعضاؤه وفسدت خلاياه فلا يستطيع القيام بدور أو المشاركة فى حياة .

وهذا الإنسان لا يكلف أكثر مما يطيق ، ولا يعطى من المعرفة فوق ما تحتاجه هذه الرحلة ، وإلا اختلطت عليه الأشياء وتعددت أمامه السبل .

وهذا الكون مخلوق ليتناسب وقدراته ويتلاءم مع مواهبه فلا يرهق من أمره عسراً .

وكل شئ محدود ومقدر ليس للصدفة مكان ولا للرأى العجل موضع ﴿ **إنا كل شئ خلقناه بقدر** ﴾[3] .

وهذا الإنسان الفانى الضعيف يستطيع أن يتصل بالقوة الكبرى ، قوة الله يتصل بلا وساطة أو كهانة . قال تعالى :

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٦

(٢) سورة البقـــرة آية رقم ٣٠

(٣) سورة القمــــر آية ٤٩

﴿ **ادعونى استجب لكم** ﴾[1] .

وكل إنسان يأخذ حقه كاملاً لا ينقص منه شئ وحياته ليست بقاؤه على ظهر الأرض فقط ، وليست هذه الرحلة القصيرة المحدودة ولكن هناك حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية ، فما نقص هنا أدخر له هناك ، وما حرم منه فى الدنيا يضاعف له فى الدار الآخرة .

وإذا كان ذلك كذلك فما الداعى إلى القلق الذى يمزق الإنسان فى داخله ... ؟ أو الحسرة على ما فات أو التألم على ماحرم منه ...؟

وهل استطاعت البشرية بما اخترعت من مبادئ وأفكار أن توجد الرضا فى داخل النفس ... ؟

إن الواقع المشاهد ينفى ذلك ... ويقرر أنها أوجدت التكالب والصراعات والحروب المدمرة .

لأنها لم تستطع أن تسوى بين الأفراد جميعاً ولن تستطيع .

والمذاهب المادية على ما بذلته من وعود ، وما سودته من قرارات لم تستطع أيضاً أن تزيل الدمامة عن مشوه الصورة أو تعوض إنسان فقد عضو واحد من أعضائه .

و لم تستطع بالرغم من تقدمها فى عالم المادة أن تجعل من ضعف النظر قوة ومن قصر القامة طولاً أو من العقم إخصاباً ، أو أن تتحكم فى نوع الانجاب ولكن الدين وإن لم يفعل ذلك فهو يقدم البديل لذلك كله .

إنه يقدم الاطمئنان إلى عدل السماء وحكمة الخالق يقول الله تعالى :

﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾[2] .

---

(١) سور غافر آية رقم ٦٠

(٢) سورة النساء آية رقم ١٩

ومع ذلك فنصيبه مدخر ، وأجره محفوظ ، وقد لا تنكشف لنا حكمة الخالق وعدله من قريب فعلينا أن نترصد لها .

وحكمة الله مبذولة لخلقه ، وتعطى لمن يصطفى من عبادة . قال تعالى :

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء من يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾[1] .

وإلهامات الله لا تقف عند حد ولا تنتهى عند عصر ولا يختص بها جيل من الأجيال . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

" إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها "[2] .

والله أعلـــــم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٩

(٢) رواه الترمذى الحكيم فى النوادر والطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن مسلمة ولابن عبد البر فى التمهيد مثله .

قال الله تعالى :

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

سورة الأحزاب آية رقم ٣٣

قال كثير من رجال التفسير نزلت هذه الآية فى : **آل بيت النبوة صلوات الله وسلامه عليهم** .

قال ذلك ابن كثير فى التفسير ٣ :٤٨٤- ٤٨٥

وقاله صاحب الدر المنثور ٥ :١٩٨ -١٩٩

وقاله الامام القرطبى فى التفسير ١٤: ١٨٣ -١٨٤

ولا شك أن زينب بنت الرسول ﷺ

من آل البيت

فمن هى زينب ...؟

زينب بنت الرسول
صلى الله عليه وسلم

أمها خديجة بنت خويلد ، كانت تدعى فى الجاهلية الطاهرة - وهى أول من آمن بالله عزّ وجل ورسوله ﷺ.

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت :

" هل كانت إلا عجوزاً ، فقد أبدلك الله خيراً منها " .

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال :

" لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها ، آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء " .

قالت عائشة : فقلت فى نفسى : لا أذكرها بسيئة أبداً .

وفى الحديث الذى رواه أبو داود بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : " أفضل نساء أهل الجنة :

خديجة بنت خويلد .

وفاطمة بنت محمد .

ومريم بنت عمران .

وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون " .

وعندما نزل الوحى على رسول الله (ﷺ) وتتابع نزول جبريل عليه السلام عليه قالت له خديجة : يا بن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك إذا جاءك - تعنى جبريل عليه السلام - فلما جاءه جبريل عليه السلام قال :

" يا خديجة ، هذا جبريل قد جاءنى .

فقالت له : قم يا بن عم فاقعد على فخذى اليمنى ففعل فقالت : هل تراه ...؟

قال : نعم .

قالت : فتحول الى اليسرى ففعل .

فقالت : هل تــــراه .

قال : نعــم .

قالت : فاجلس فى حجرى . ففعل ، فقالت : هل تراه ...؟

قال : نعــم .

فألقت خمارها وحسرت عن صدرها . فقالت : هل تراه ...؟

فقال : لا

قالت : أبشر فإنه والله ملك وليس شيطان .

ولقد ولدت له خديجة : القاسم ، وبه كان يكنى (ﷺ) وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة .

وزينب - رضى الله عنها - كانت أكبر البنات ، ولما أن بلغت العاشرة من عمرها ، غدت محط أنظار فتيان كبرى العائلات فى قريش ، ولكن لم يظفر بها سوى ابن خالتها هالة بنت خويلد .

كان أبو العاص يرقبها منذ طفولتها كلما أطل على بيت خالته خديجة ، وكان مأخوذاً بجمالها ورقتها وذكائها .

كان أبو العاص يجلس معها ويحدثها عن أسفاره كلما عاد من تجارة لـه ، فتـأنس له ويأنس لها دون حذر ، ولاحرج .

أما عن زينب : فقد بدأت ترى فيه قوة الشباب وتوازن الشخصية وهدوء الطباع وسعة الخبرة ، وكانت ترتاح إليه وتحب أن تسمع حديثه وطرائفه .

وكانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ ترقب نمو ابنتها ، وكـان يرضيهـا أن تكـون من نصيب ابن اختها ، وهى قد عرفته منذ طفولته الباكرة ، كما أنها لم تكن تخفـى عن زوجها الكريم محمد بن عبد الله ـ رغبتها هذه .

و لم يمض على ذلك وقت طويل حتى تمت خطبة زينب على أبى العاص بن الربيع الذى كان يعتبر أحد رجال مكة البارزين مالاً وأمانة وتجارة ... وهو من قبل هذا ومن بعده يعد من أشراف قريش ، ويلتقى مع محمد بـن عبـد الله فـى جـده الثـالث عبـد مناف ، كما يلتقى مع زينب فى جدها خويلد .

ويصفه قومه بأوصاف كثيرة فهو كريم الخصال ، حميد الأخلاق ، طلق المحيا ، كريم أمين - حتى لقبه قومه كما لقبوا محمد بالأمين .

ثم كان الزفاف وأقيمت ليـالى الفـرح والسـرور ـ ثـم أنتقلـت إلى بيـت زوجهـا فتركت فراغاً كبيراً ووحشة هائلة . ورغم أنها قـد أخـذت فـى تدبـير شـئون بيتهـا لكنها ظلت تتردد على أمها وإخوتها وأبيها ـ كلما ابتعـد أبـو العـاص عـن مكـة فـى رحلة من رحلاته إلى بلاد الشام أو العودة منها .

وذات يوم ذهبت فاطمة إلى بيت أبيها ـ فسمعت أخباراً جديدة ، وحملـة قريـش الضارية على أبيها بعد أن وقف على الصفا منادياً قومه وعشيرته :

" أيها الناس إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة " .

وما كان من غضب أبى لهب وتناوله أبيها بكلمات جارحة ـ ووعت أذن زينب رضى الله عنها ـ كل هذه الأحداث ـ وما كان فى غار حراء وقناعة خديجة بما أخبرها به زوجها وذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل . وتصديقه بما جاء به .

إن أبيها يدعو إلى مكارم الأخلاق .

يدعو إلى عبادة الواحد الأحد الذى خلق السموات والأرض .

يدعو إلى المساواة بين الناس جميعاً لأنهم أبناء آدم ، وآدم خلق من تراب

يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان

يدعو إلى نبذ عبادة الشمس والقمر

يدعو إلى نبذ عبادة الجن والملائكة

إنه يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنه عبد الله ورسوله .

وعندما وصلت زينب فى تصوراتها إلى ذلك . أعلنت إسلامها ، ودخولها فى دين الله الذى لا يقبل غيره ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] .

ثم عادت إلى بيتها هادئة النفس مطمئنة القلب ، حامدة شاكرة لله تعالى أن هداها إلى الطريق المستقيم .

ثم جلست تنتظر زوجها وتجمع شتات فكرها ، وتتذكر الكلمات التى ألقتها على مسامعها أمها خديجة ، حتى تدعو زوجها إلى الإسلام .

وعندما عاد أبو العاص وأخبرته بدخولها إلى الدين الجديد ، وتدعوه هو الآخر إلى اعلان إسلامه وترك عبادة الأوثان والأصنام . سمعته يتمتم بينه وبين نفسه ببعض الكلمات ولكنه لم يبين ، وعندما ألحت عليه فى ذلك ـ أخبرها أنه لم يقتنع بعد بما

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩

جاء به أبيها ، وأن قريشاً لن يهدأ لها بال حتى يكف محمد عما يدعوهم إليه . فهو متمسك بدين آبائه وأجداده حتى ترى قريش رأيها .

اشتد النقاش بين زينب وزوجها فخرج أبو العاص من الدار حائراً ، وعاد إلى الدار فى آخر الليل صامتاً ، وأخبرها أنه لقى أباها فى الكعبة فدعاه إلى الإسلام .

وهكذا انتصب حاجز بين زينب وزوجها ، وأخذ ينمو شيئاً فشيئاً متصاعداً مع تطورات الأحداث بين أبيها وقريش .

فها هو الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش يلتقى بالرسول (ﷺ) فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبو جهل بن هشام فأتاه فقال : أى عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

قال : لم...؟

قال : يعطونكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لمقابلته .

قال : قد علمت قريش أنى أكثرهم مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ... ؟ فوا لله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، وا لله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، وا لله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ماتحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .

قال أبو جهل : وا لله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره.

عندها نزل الوحى على رسول ا لله (ﷺ) بقوله تعالى :

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً (١١) وجعلت له مالاً ممدوداً (١٢) وبنين شهوداً (١٣) ومهدت له تمهيداً (١٤) ثم يطمع أن أزيد (١٥) كلا أنه كان لآياتنا

عنيداً (١٦) سأرهقه صعوداً (١٧) إنه فكر وقدر (١٨) فقتل كيف قدر (١٩) ثم قتل كيف قدر (٢٠) ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤) إن هذا إلا قول البشر (٢٥) ﴾[1] .

وما تبع ذلك من اضطهاد قريش لأبيها وأتباعه ، ومحنة الحصار وموت عمه أبى طالب وأمها خديجة . وتآمر أهل مكة على قتل الرسول (ﷺ) ثم هجرته إلى يثرب .

كانت زينب تلاحق أخبار أبيها ساعة بساعة ، وهى ترتجف قلقاً وخوفاً عليه حتى علمت بوصوله (ﷺ) إلى يثرب سالماً ـ عندها اطمأن قلبها . ولم يمض وقت طويل على وصول الرسول (ﷺ) إلى يثرب حتى لحقت به ابنتيه فاطمة وأم كلثوم .

وبقيت زينب وحيدة فى مكة ـ مرتبطة إلى زوجها الذى لا زال متمسكاً بدين آبائه ولم يعد أمام زينب إلا تلاوة القرآن ، فإذا غلبها الحنين زرفت الدموع الغزار .

ولم تلبث الأحداث أن تسارعت من جديد فقد أغار المسلمون على قافلة أبى سفيان فنفرت قريش برجالها .

وفى يوم ليس كمثله يوم لمحت زينب خروج ألف مقاتل من مكة ومعهم زوجها أبو العاص لحرب أبيها ، فتصدع قلبها ، وأحست مرارة التمزق بين أبيها وزوجها. وهو وضع عايشته ـ رملة بنت أبى سفيان حين أصبحت زوجة للرسول ـ وأباها على كفره ، إنهما وضعان متعاكسان ، وإن كانت مرارتهما واحدة .

وما هى إلا أيام قليلة فى عمر الزمن حتى وصلت إلى مكة أخبار انتصار المسلمين فى موقعة بدر وأخذ المسلمون المستضعفون فى مكة يرددون قول الله تعالى :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم (١٢١) إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٢٢) ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون (١٢٣) إذ تقول

---

(١) سورة المدثر الآيات من ١١ ـ ٢٥

للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين (١٢٤) بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (١٢٥) وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (١٢٦) ﴾[1] .

وكم كانت فرحة زينب لنصرة أبيها ومن معه من جماعة المسلمين ، ولكن هذه الفرحة ، شابها أن زوجها ووالد أولادها قد وقع فى الأسر ، فيمن وقع من قريش وتسارعت قريش فى تجهيز الفدية التى طلبها رسول الله ﴿ﷺ﴾ لفك سراح الأسرى . فأرسلت زينب الفدية لفك سراح زوجها .

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حتى بنى عليها .

قالت : فلما رآها رسول الله ﴿ﷺ﴾ رق لها رقة شديدة وقال :

" إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا " .

فقالوا : نعم يا رسول الله فاطلقوه وردوا عليها الذى لها [2] .

وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد أخذ عليه ، أو وعد رسول الله ﴿ﷺ﴾ بذلك ، أن يخلى سبيل زينب إليه ، أو كان فيما شرط عليه فى إطلاقه ، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ فيعلم ما هو ، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وُخلى سبيله بعث رسول الله ﴿ﷺ﴾ زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار مكانه فقال :

" كونا ببطن يأجج[3] حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها " .

فلما قدما أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها .

---

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٢١ - ١٢٦

(٢) راجع سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٧

(٣) مكان بين مكة والمدينة - وهو أقرب منه إلى المدينة

تجهيز زينب للهجرة إلى يثرب

قالت زينب ـ رضى الله عنها ـ بينما أنا أتجهز بمكة للحوق بأبى لقيتنى هند بنت عتبة فقالت :

" يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك " .

قالت : فقلت ما أردت ذلك .

فقالت : أى أبنة عمى ، لا تفعلى إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك فإن عندى حاجتك فلا تستحى منى . فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال .

قال زينب : والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل . ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت .

الرحيل

فلما فرغت بنت الرسول (ﷺ) من جهازها قدّم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيراً فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته ـ ثم خرج بها نهاراً يقود بها ـ وهى فى هودج لها ـ وتحدث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بمكان يسمى ـ بذى طوى ـ فكان أول من سبق إليها ـ الشقى ، هبار ابن الأسود فروعها هبار بالرمح وهى فى هودجها ـ وكانت زينب ـ رضى الله عنها ـ حاملاً فلما ريعت طرحت ما فى بطنها ، وبرك أخو زوجها ونثر كنانته ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً فانهزم الناس عنه .

ثم أتى أبو سفيان بن حرب فى جماعة من قريش فقال :

أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك . فكف كنانة عن رميهم بالنبل .

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

" إنك لم تُصب ، وخرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبدتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت ابنته إليه علانية على رءوس الناس بين أظهرنا أن ذلك على ذُلٍ أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من طلب ثأر . ولكن ارجع بالمرأة ، حتى إذا هدأت الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها فخذها سراً وألحقها بأبيها .

قال : ففعل ، فأقامت ليالى ، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه . فقدما بها على أبيها عليه السلام[1]

عادت زينب إلى أبيها واستقرت فى بيته وبين إخوتها ـ عادت إلى القلب الحنون إلى الرحمة المهداة ، حيث الأمن والأمان ، ولكن هل نسيت زينب زوجها هل خاب عن ذاكرتها لحظة ...؟

إن رواه التاريخ يقررون أن زينب كانت بارة بأبيها ، ذاكرة لذكريات زوجها وما كان فيها من مودة ورحمة .

وعكفت على كتاب ربها تسأله أن يهدى زوجها إلى الإسلام ، وأن يهبها السكينة والاستقرار حتى تتحمل فراق زوجها .

ومرت عليها الأيام ثقيلة متباطئة حتى كان يوم خرج أبو العاص بتجارته إلى الشام ـ وكان رجلاً مأموناً ـ بمال له وأموال لرجال قريش حملوها له ، فلما فرغ من بيع تجارته وأقبل عائداً إلى مكة ، لقيته كوكبة من فرسان الرسول (ﷺ) فأصابوا ما

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٩ والبداية والنهاية ٣ : ٣٣٠

معه من التجارة ـ وفـر منهـم هاربـاً ، فلمـا قدمـت الكوكبـة بمـا أصـابوا مـن مالـه إلى المدينة ، أقبل أبو العاص تحت ظلام ا لله حتى دخل علـى زينـب بنـت رسـول ا لله «ﷺ» ـ فأستجار بها فأجارته ، وجاء فى طلب ماله.

فلما خرج رسول ا لله «ﷺ» إلى صلاة الصبح فكبر وكبر الناس صرخت زينب مـن صُفَّة النساء :

" أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ".

قال : فلم سلم رسول ا لله «ﷺ» من الصلاة ، أقبل على النـاس فقـال : " يـا أيهـا الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

قالوا : نعـــم

قال : أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت مـا سمعتـم إنه يجير على المسلمين أدناهم " .

ثم أنصرف رسول ا لله «ﷺ» فدخل على أبنته فقال :

" أى بنيه أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له " .

ثم إن رسول ا لله «ﷺ» بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال :

" إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسـنوا وتـردوا عليـه الذى له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فئ ا لله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به ".

قالوا : يا رسول ا لله بل نرده عليه .

قال : فردوه عليه لم ينقص منه شيئاً .

مرحى لهؤلاء الرجال الذين تربوا فى مدرسة الإسلام إنهم أمنـاء على دينهـم حتـى يبلغوه إلى البشرية كلها ، وأمناء على أموال الغير وأعراضهم ، فـلا تمـس مـن قريـب أو بعيد .

إنهم الرجال الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه بقوله :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ .

إنهم الرجال الذين خرجوا من الجزيرة العربية - بغية نشر دين الله تعالى وكانوا يحملون سيوفهم ، ومن وراء سيوفهم أخلاقهم ، فكأن سيوفهم نفسها ذات أخلاق .

ثم عاد أبو العاص إلى مكة ، وترك فى يثرب من أحب الناس إلى قلبه إنها زينب وأبيها . فمتى يعود إليهما ...؟

وفى اليوم التالى لوصوله : أدى إلى كل ذى حق حقه من المال الذى حمله ثم جمعهم قريباً من بيت الله الحرام . حتى إذا كانوا أمامه قال لهم :

يا معشر قريش : هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ...؟

قالوا جميعاً : لا ، فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً .

قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمد عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا إنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله (ﷺ)

وما أن وصل المدينة ، حتى دخل على الرسول (ﷺ) فى المسجد وبايعه فهلل الناس وكبروا . ثم قام النبى وأخذ بيده وتوجها معاً نحو زينب الصابرة المؤمنة المحبة — رضى الله عنها .

كان إسلام أبى العاص فى السنة السابعة للهجرة ، ولكن ما إن إجتمع شمل العائلة من جديد حتى جاء الفراق الذى لا لقاء بعده .

وكان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة ، وهدَّ المصاب أبا العاص فعاش فترة وجيزة يجتر أحزانه ، ويتجرع آلامه - حتى لحق بها بعد أربع سنوات ، وكأنها الدهر كله.

وبموت زينب أحب الناس إلى قلب الرسول (ﷺ) طويت ملحمة من ملاحم . الوفاء والاخلاص ، والنبل والفداء . رحمهما الله رحمة واسعة ، وأسكن الزوجين فسيح جناته .

أسباب النـــزول

قال ابن جرير : بسنده عن أم مسلمة - رضى الله عنها - قالت : جاءت فاطمة - رضى الله عنها - إلى رسول الله (ﷺ) ببرمة لها قد صنعت فيها عصيـدة تحملهـا على طبق ، فوضعتها بين يديه (ﷺ) فقال :

" أين ابن عمك وابناك ؟ "

فقالت رضى الله عنها : فى البيت .

فقال (ﷺ): ادعيهم . فجاءت إلى علىّ (ﷺ) - فقـالت : اجـب رسـول الله (ﷺ) أنت وابناك .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها - فلما رآهـم مقبلين مد (ﷺ) يده إلى كساء كـان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعـة بشـماله فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال :

" اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " .

وقال ابن جرير (طريق آخر) بسنده عن الأعمش عن حكيـم بـن سـعد قـال : ذكرنا على بن أبى طالب (ﷺ) عند أم مسلمة - رض الله عنها - فقـالت : فـى بيتـى نزلت :

﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ [1].

قالت أم مسلمة جاء رسول الله (ﷺ) إلى بيتى فقال :

" لا تأذنى لأحد " .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣

فجاءت فاطمة - رضى الله عنها فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن (ﷺ) فلم أستطع أن أمنعه يدخل على جده وأمه ، وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده (ﷺ) وأمه - رضى الله عنها - ثم جاء على (ﷺ) فلم استطع أن احجبه فاجتمعوا ، فجللهم رسول الله (ﷺ) بكساء كان عليه ثم قال : " هؤلاء أهل بيتى فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً " .

فنزلت هذه الآية حتى اجتمعوا على البساط .

قالت : فقلت يا رسول الله وأنا ...؟ قالت : فوالله ما أنعم وقال : إنك على خير ...(1).

وقال الامام احمد بسنده عن أبى المعدل عن عطية الطفاوى عن أبيه قال : إن أم سلمة - رضى الله عنها - حدثته قالت : بينما رسول الله (ﷺ) فى بيتى يوماً إذ قالت الخادم إن فاطمة وعلياً - رضى الله عنهما بالسدة .

قالت : فقال رسول الله (ﷺ) " قومى فتنحى عن أهل بيتى "

قالت : فقمت فتنحيت فى البيت قريباً فدخل علىٌّ وفاطمة ، ومعهما الحسن والحسين - رضى الله عنهم - وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما واعتنق علياً (ﷺ) باحدى يديه ، وفاطمة — رضى الله عنها — باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل علياً وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال :

" اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى " .

فقلت : وأنا يا رسول الله ...؟

قال (ﷺ): وأنت .

وعن ابن جرير بسنده عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة — رضى الله عنها - خرج النبى (ﷺ) ذات غداه وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٦

(ﷺ) فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة رضى الله عنها فأدخلها معه ثم جاء على (ﷺ) فأدخله معه ثم قال (ﷺ): ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن حوشب (ﷺ) عن عم له قال : دخلت مع أبى على عائشة - رضى الله عنها - فسألتها عن علىّ (ﷺ).

فقالت - رضى الله عنها : تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله (ﷺ) وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه ...؟

لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً - رضى الله عنهم فألقى عليهم ثوباً فقال (ﷺ) :

" اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهير " .

قالت : فدنوت منهم فقلت : يا رسول الله وأنا من أهل بيتك ...؟ فقال عليه السلام : " تنحى فإنك على خير "[1] .

وقال مسلم فى صحيحه بسنده عن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم (ﷺ) فلما جلسنا إليه قال له حصين، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً : رأيت رسول الله (ﷺ) ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً .

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ﷺ) . قال :

" يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى ، وقدم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلفوا فيه . ثم قال : قام فينا رسول الله (ﷺ) يوماً خطيباً بماء يدعى خمساً بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال :

---

(١) راجع تفسير ابن جرير عند حديثه عن هذه الآية

" أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما : كتاب الله تعال فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به " . فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه .

ثم قال : وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثاً.

فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ...؟

أليس نساؤه من أهل بيته ، قال نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده .

قال : ومن هم ... ؟

قال : هم آل عليٍّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر وآل عباس ، رضى الله عنهم .

قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ...؟

قال : نعم [1].

وفى رواية محمد بن الريان بسنده عن زيد بن الأرقم (ﷺ) فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه فقلت له من أهل بيته نساؤه ...؟

قال : لا : وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .

قال ابن كثير : ثم الذى لا يشك فيه من تدبر القرآن : أن نساء النبى (ﷺ) داخلات فى قوله تعالى :

﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[2].

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم فى فضائل الصحابة ٣٦ -٣٧ والدرامى فى فضائل القرآن ١ واحمد بن حنبل فى المسند ٣ : ١٤، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩ ، ٤ : ٣٦٧ ، ٣٧١ (حلبى)

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣

فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال الله تعالى بعد هذا كله :

﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ [1].

هذا وبالله السداد والتوفيق وهو أعلم بالصواب .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٤

تذييل ...

الوفاء صفة محمودة فى الرجال والنساء . والوفاء دليل الصدق والحب والإخلاص ، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى الأوفياء بقوله :

﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾[1] .

ووعد الأوفياء بالأجر الكبير ... قال تعالى :

﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[2].

والوفاء دائماً يرتبط بالتقوى ، ومن ثم لا يتغير فى التعامل مع عدو أو صديق ، ولقد كانت زينب بنت الرسول (ﷺ) مثالاً حياً فى الوفاء ــ الوفاء لأسرتها التى ترعرعت بين أحضانها ، والوفاء لدينها الذى أكرمها الله به ، والوفاء لزوجها الذى ارتبطت به ، ومن أجل ذلك ما كادت تعلم بأسر زوجها ، وأنه لا يطلق سراحه إلا بالفدية . حتى سارعت بتقديم الفدية بأغلى شئ يمكن أن تحافظ عليه وهو القلادة التى قدمتها لها أمها . يوم زفافها .

إن هذه القلادة تحمل ذكريات عطرة لا يمكن أن تمحى أو تنسى بتقادم الزمن . إن هذه القلادة هدية الأم الحنون التى سهرت الليالى ، حول مهدها تهدهده وترعاها من كل شئ يمكن أن يصيبها .

إنها أغلى الناس وأبر الأمهات .

وأيضاً ارتبطت هذه القلادة بليلة الزفاف ، تلك الليلة التى هى أغلى الليالى

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧٦.

(٢) سورة الفتح آية رقم ٧ .

وأحلى الأيام فى حياة كل عروس تزف إلى رجلها .

ولكن الوفاء دفعها أن تقدمها عن طيب خاطر حتى يعود إليها زوجها الذى يملأ الحياة حولها نوراً وبهاء .

ولا شك أن هذا الموقف الذى وقفته زينب ، يحسب لها على صفحة التاريخ بأحرف من نور ، ولقد كان له فى قلب أبى العاص ، الفرحة التى لا تنسى ، والنغمة الحلوة التى لا تمحى ، والأريج الذى لا يبدده الأثير ، ولا يتلاشى عند هبوب أعاصير الزمن .

وهل ينسى أبو العاص ، عندما حاصره الأعداء وسدت أمامه كل المنافذ ، وأوشك أن يكون طعمة لسيوفهم وهدفاً لرماحهم ، ولم يكن أمامه مفر إلا اللجوء إلى زينب أملاً أن يجد فى جوارها الأمن والأمان . فكانت عند حسن ظنه ، وفتحت قلبها ووفاءها للزوج المطارد وقامت لتعلن أمام جموع المسلمين كلمتها التى دوت أصداؤها فى مسجد الر سول (ﷺ) .

أيها الناس : إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

عندها تبدل الخوف أمناً ، والحزن فرحاً ، وردت إليه الأموال التى أخذت منه وعاد إلى مكة ، وعلى رأسه أكاليل الفوز والظفر .

ولقد بادلها أبو العاص وفاء بوفاء وحباً بحب ، وكان لها نعم الزوج الحنون ، والأب البار لأبنائها .

ومن أجل ذلك قال عنه الرسول (ﷺ) .

" حدَّثنى فصدقنى .

ووعدنى فوفانى ".

وبهذه الكلمات الصادقة الطيبة التى قالها رسول الله (ﷺ) نستطيع أن نضع أيدينا على مفتاح شخصية هذا الرجل الذى قبله رسول الله (ﷺ) صهراً له .

إن من أهم الصفات التى يتميز بها أبو العاص الصدق ، والصدق من علامات الإيمان ، وشاهد على تكامل الشخصية والرجولة ، والرجل الصادق قريب من الناس ، لأنه يصدقهم ولا يخدعهم ، وقريب من الله سبحانه وتعالى ، لآدائه ما أمره به من عبادات وتكاليف .

الرجل الصادق يستمر فى صدقه حتى يصبح عند الله صديقاً .

والرجل الكاذب يستمر فى كذبه حتى يكتب عند الله كذاباً .

والأمم والشعوب كالأفراد فى صفة الصدق والكذب ، فالأمة التى تنشئ أبناءها على الصدق يزداد رصيدها من الرجال الأقوياء الذين يعملون بصدق وإخلاص .

فهم صادقون فى عملهم ، يجودونه ويهتمون به ، وهم صادقون مع مجتمعهم يعملون لسعادته ويسهرون على راحة أبنائه ، فإذا كانوا جنودا ًوقفوا على حدوده ودافعوا عن حياضه ، وردوا عنه - بصدقهم - وحسن بلائهم هجمات المهاجمين ، وغارات المغيرين ، وإن كانوا فى داخله فهم مع الانتاج حتى يزيد .

ومع الأرض القاحلة حتى تخضر .

ومع الأغوار البعيدة حتى تستخرج المعادن .

ومع الأطفال الصغار بالتعليم والتدريب والرعاية ، حتى يودعوا عهد الطفولة وينضموا إلى صفوف الرجال .

وما أحوج الأمة الإسلامية فى عهدها الراهن إلى مجتمع الصادقين .

والصفة الثانية فى زوج زينب - رضى الله عنها - الوفاء .

والوفاء : أحد المعالم الأساسية فى شخصية الرجل المسلم ، والمرأة المسلمة ، ولا يكتمل إيمانهما وإسلامهما إلا إذا تحلى بهذه الصفة الجليلة .

لقد كان أبو العاص ، يستطيع أن يعلن إسلامه فى المدينة ، ويستولى على تجارة قريش وأموالها .

وهو إذا فعل ذلك لايعارضه إنسان ، ولا تستطيع قريش أن تنال منه أو تصل إليه ولكنه لم يفعل ـ لأنه إن فعل ذلك ـ لا يقبله الإسلام الذى يريد الانتماء إليه ولا يقبل منه صلاة ولا صياماً ، ولا دعاء ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فهو من أصحاب النار.

وفى عصرنا هذا نرى شيئاً عجباً دولاً كبيرة ، تدعى أنها ذات حضارة وتمدن تسطو على أموال الشعوب التى أؤتمنت عليها فى مصارفها فتجمدها تارة ، وتستولى عليها أخرى .

وهى بهذا العمل تخالف الأعراف الدولية ، وتخون الأمانة التى أؤتمنت عليها ، وتمزق كل روابط العهود والمواثيق .

فمتى تعود هذه الدول ــ إلى شرع الله ...؟ وإلى أبسط قواعد الإنسانية التى أخذت نفسها بها فى تاريخها الطويل ... ؟ حتى يعود الأفراد والجماعات إلى الوفاء بالوعد ، والصدق فى القول والأمانة فى المعاملات .

فمتى يحدث هذا يا رب ...؟؟

إنا لمنتظرون .

بلقيس بنت شراحيل

قال الله تعالى:

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾

سورة النمل الآيتان ٢٣ - ٢٤

اتفق رجال التفسير على أن هذه الآيات نزلت فى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ .

قال ذلك فخر الدين الرازى فى التفسير ١٢: ١٩٠

وقاله صاحب الكشاف ٣: ٢٨٤

وقاله إبن كثير فى تفسير القرآن العظيم ٣ :٣٦٠

وقاله الشوكانى فى فتح القدير ٤:١٣٢-١٣٣

وقاله السيوطى فى الدر المنثور ٥:١٠٥

فمن هى بلقيس بنت شراحيل ..؟

بلقيس بنت شراحيل

إنها ملكة سبأ ـ عندما كانت هذه الدولة فى أوج حضارتها ونهضتها ـ يصفها المؤرخون : بصاحبة العقل الراجح والفكر السليم ، نشأت فى بيت الملك والعز ، وترعرعت طفولتها فوق الأرض اليانعة ، وفتحت عينيها على الحدائق المليئة بالثمر الفواحة بالأريج ، وقد ذكرها الله فى كتابه بقوله :

﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلده طيبة ورب غفور ﴾(١) .

وهذه الجنان الكبيرة ، والخير الوفير الذى تنتجه هذه الأرض دفع أهلها إلى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الامطار الغزيرة التى تأتيهم عبر البحر من الجنوب والشرق ، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين كبيرين وجعلوا على فم الوادى بينهما سداً محكماًتتخله عيون تفتح وتغلق فخزنوا الماء بكميات عظيمة خلف السد ، وتحكموا فيها وفق حاجتهم فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم ، وقد عرف هذا الحاجز فى التاريخ بأسم "سد مأرب" والذى جاء ذكره فى القرآن الكريم ... قال تعالى :

﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ﴾(٢).

أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح فسلبهم الله تعالى الرخاء الكثير والخير الوفير ، وأرسل عليهم السيل الجارف الذى حمل فى طريقه الحجارة الثقيلة

---

(١) سورة سبأ آية رقم ١٥ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ١٦ .

لشدة تدفقه فحطم السد الكبير فساحت المياه حتى طغت وأغرقت كل شئ .

فى هذا النعيم المقيم ، والعز الأثيل ، عرفتها الحياة طفلة تملأ الحياة حولها جمالاًوبهاء ، وشابة تسير بخطوات ثابتة إلىالمجد والتمتع بالحياة ، حتى مات والدها ، وأوشكت الحياة أن تقلب لها ظهر المجن ، إذ طمع فى الملك الطامعون ، وشد بريقه الرجال المتسلطون .

وكان أقواهم فى حلبة السباق عمرو ذى الأذعار الذى جمع حوله الأتباع والأنصار وجلس على العرش ، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد وحاكما على رقاب العباد . ولكن بلقيس احتالت عليه ، حتى دخلت إلى مجلس منادمته ، فبهرته بجمالها ، وسلبت لبه بحديثها ومسامرتها ، فإطمأن إليها واسلم قياده لها ، عندها استلت خنجرها الذى كانت تخفيه بين جدائل شعرها ، ثم ذبحته كما تذبح الشياه ، ووارت جثته تحت الأمتعة والطنافس . ثم خرجت إلى حرسه فى جوف الليل قائلة لهم :

" إن الملك يأمركم أن تحضروا له عليَّة القوم ، وملوك حمير وأبناء الملوك وفرسان القبائل ورجال التدبير والحكم " .

وعندما تكامل عددهم فى ساحة قصر غمدان خرجت عليهم وأخبرتهم أن الملك رغب فى زواجها فاستجابت له ، وفى سبيل ذلك تنازلت عن الملك لمليكهم لأنه أقدر على حكم البلاد ، وعلى إدارة وتنفيذ سياسة الحكم فيه . على أن يكون لها الملك من بعده ، ثم قالت وقد أمرنى أن آخذ عليكم بذلك عهداً وميثاقاً . فماذا أنتم قائلون... ؟

قالوا : سمعاً وطاعة للملك فيما دبر وأراد .

وما هى إلا أياماً قليلة حتى أعلنت وفاة الملك وأنها الوريثة الشرعية للملك بالعهد والميثاق السابقين .

وأخذت فى تجميع الجيوش وحشد الكتائب ثم توجهت إلى أرض بابل فأخضعتها لحكمها وأسلمت قيادتها لبعض رجالها ، ثم ساحت فى الأرض الوعرة والجبال المرتفعة حتى بلغت أرض نهاوند تلك المدينة العظيمة وتخطتها إلى بلاد الديلم – ثم عادت مرة أخرى إلى أرض اليمن .

وسارت بها الحياة رخاء لا هم لها إلا تدبير سياسة البلاد والتحكم فى رقاب العباد ؛ حتى شاء الله تعالى أن يرسل رسوله سليمان بن داود عليهما السلام برسالة التوحيد ، وعبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

قال تعالى :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين(١٥) وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين(١٦) وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون(١٧) حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون(١٨) فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن اعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين(١٩) ﴾[1] .

هذه الآيات تبرز قيمة العلم ، والأشارة إلى أن العلم كله هبة من الله تعالى وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره وأن يتوجه إلى الله ، وألا يصرفه هذا العلم عن الابتعاد عن الله تعالى .

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم بتحطيم الذرة واستخدامها ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر

(١) سورة النمل الآيات من ١٥ - ١٩

أصحابه الله ولا يخشونه ولا يتوجهون بالحمد له إنها لم تجن غير الضحايا في قنبلتي "هيروشيا ، نجازاكي" والخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء .

نقول : سارت الحياة بالملكة بلقيس رخاء ، فدولتها كبيرة ، وخيراتها وفيرة وشعبها مطيع حتى كان يوم ليس كمثله يوم وجدت رسالة على عرشها وما كادت تفض غلافها حتى قرأت ما فيها فهلعت إلى مستشاريها لتعلمهم بما حدث لها قائلة :

﴿ يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم(٢٩) إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) ألا تعلوا على وأتونى مسلمين (٣١) ﴾[1] .

ثم تابعت حديثها قائلة :

﴿ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾[2].

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل ولكنهم فوضوا للملكة الرأى واتخاذ القرار

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾ [3].

وهنا تظهر شخصية المرأة من وراء شخصية الملكة ، المرأة التى تكره الحرب والتدمير والتى تبرز سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تبرز سلاح القوة والمقاتلة .

قالت بلقيس :**﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾**[4].

---

(١) سورة النمل الآيات من ٢٩ - ٣١

(٢) سورة النمل آية رقم ٣٢ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٣٤ .

إنها تعرف أن من طبيعة الملوك إذا دخلوا إلى البلاد فاتحين أشاعوا فيها الافساد وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها حكامها وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة فيها .

فماذا تفعل ... ؟

عليها أن تلجأ إلى السياسة قبل الحرب وأن ترسل لسليمان هدية تصانعه بها وتستنزل مودته بسببها ، وتصرف مطامعه عنها .

هكذا كانت تحادث نفسها ، وتدير الأمور فى عقلها واستقرت أخيراً على هذا الرأى وحين تم إعداد الهدية طلبت من رسلها أن يقفوا على أحوال الملك ليعودوا إليها بتقرير واف عن حقيقته ومدى قوته فى مملكته ولقد انصاعوا لأوامرها وانطلقوا نحو بلاد سليمان عليه السلام .

إن بلقيس بهذا العمل نراها تتصرف بكامل الحكمة والذكاء فهى بحاجة لأن تعرف عن هذا الملك الذى يتهددها على غير جريرة ويطلب حضورها خاضعة بلا تردد ، وما هى العواقب فيما لو قبلت أو رفضت ، إنها بحاجة لأن تكون على رأس قرارها ، حتى إذا فعلت أمراً فعلته بعد تدبير العواقب وحساب الاحتمالات .

وسارت القافلة إلى سليمان حتى وصلت إليه ووضعت الهدايا بين يديه وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام ويعلن فى قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣٦) ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون(٣٧)﴾ [1].

وفى الرد احتقار للمال واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله مجال العبادة لله

---

(١) سورة النمل آية رقم ٣٦ - ٣٧ .

وحده لا شريك له ﴿ **أتمدونني بمال**﴾ أتقدمون لى هذه الزينة الفانية وتريدون منى أن استبدلها بالقيمة الباقية ﴿ **فما آتانى الله خير مما آتاكم** ﴾ .

لقد أتانى من المال خيراً مما لديكم ، ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق العلم والنبوة ، وتسخير الجن والطير ، فما عاد شئ من عرض الأرض يفرحنى بل أنتم بهديتكم تفرحون ، وتقبلون على هذا النوع من الزينة الرخيصة التى تعنى هؤلاء الذين يتكالبون على متاع الدنيا الذى وصفه الله تعالى بقوله ﴿ **قل متاع الدنيا قليل**.)[1].

ثم يتبع سليمان عليه السلام هذا الاستنكار بالتهديد "ارجع إليهم" بالهدية وانتظروا المصير المرهوب : ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ جنود لم تسخر لبشر من البشر فى أى مكان ، ولاطاقة للملكة وقومها بهم فى قتال ، ثم ماذا ...؟ نخرجهم منها أذلاء مقهورين مدحورين . نفعل ذلك لرفضهم عبادة الله تعالى وإستبدالها بعبادة الشمس والقمر والله تعالى يقول :

﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا القمر وإسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[2] .

وعادت القافلة إلى المملكة تجر أذيال الخيبة والفشل عندها علمت بلقيس أن الذى أمامها ليس ملكاً من الملوك . ممن يرغبون فى الجاه والمال . ويلهثون خلف متاع الدنيا الخلاب . ولكنه نبى من الأنبياء يحمل رسالة من ربه ليبلغها إلى خلقه إنها رسالة التوحيد . قال تعالى :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ إنها رسالة السلام والأمان ، رسالة الهداية للتوجه إلى خالق الأرض والسماء . إنه الإسلام .

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٧ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٣٧.

﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[1] عندها قررت بلقيس السعى إليه ، والوقوف بين يديه وسارت بجيشها وحاشيتها ورجال دولتها تقطع الفيافى والقفار حتى وصلت إليه عندها قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت :

﴿ **رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[2].

لقد اهتدى قلبها واستنار واتجهت إلى خالقها بالعبادة الخالصة وعرفت أن الإسلام ليس استسلاماً لأحد من خلق الله ـ ولو كان نبياً من الأنبياء أو ملكاً من الملائكة وإنما الإسلام إسلام له رب العالمين ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾[3]

ولقد سجل القرآن الكريم هذه اللفتةوأبرزها للكشف عن طبيعة الإيمان بالله والإسلام له فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صفوف الغالبين بل التى تجعل الغالب والمغلوب فى صف واحد أخوين متحابين ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾[4] لا غالب ولا مغلوب ، لا قاهر ولا مقهور لا ملك ولا مملوك وإنما الكل عبيد لله رب العالمين وصدق ربى فى قوله :

﴿ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**﴾[5] ثم ماذا ...؟ بعد هذه النهاية والإيمان هل أقرها سليمان على ملك اليمن ؟ هل تركت الملك والحكم وتحولت إلى عابدة قانتة لله تعالى ... ؟ هل تزوجت سليمان وولدت له ولداً وأصبحت ربة بيت تهدهد الطفولة وتصنع الرجولة . وتقف خلف زوجها النبى تشد من أزره حتى يبلغ رسالة ربه ...؟ إن كتب التاريخ تزيد فى ذلك وتقول ، وتصدر الرواية تلو الأخرى ولكن

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩ .

(٢) سورة النمل آية رقم ٤٤ .

(٣) سورة النمل آية رقم ٤٤ .

(٤) سورة الحجرات آية رقم ١٠.

(٥) سورة غافر آية رقم ١٦.

الكتاب الذى لم يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لم يتعرض لذلك من قريب أو بعيد .

لهذا لم يجز لنا أن نخوض مع الخائضين فيما لم يدعمه نص من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

هذا وبالله التوفيـــــق .

تذييـــل ...

ما موقف الإسلام من المرأة بعامة ، سواء أكانت زوجة أو أم أو أبنة ... ؟

هل يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة ...؟

هل الإسلام يعتبر المرأة أقل من الرجل فى الحياة العامة ...؟

أم أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة و لم ينقص منها شئ .

وما موقف المرأة من قضية الزواج هل تجبر على الزواج من رجل لا تريده ؟

إن المستعرض لشرائع الإسلام يرى أن للمرأة الحق فى المشاركة البناءة فى تكويـن الأسرة جنباً إلى جنب مع الرجل ، والمشاركة فى الحيـاة العامـة وأعطاهـا نفـس الحـق الذى منحه للرجل ، وحمّلها المسئولية كاملة فى إصلاح المجتمع ، ويظهر ذلـك جليـاً فى مبايعة النساء للرسول (ﷺ) ... قال الله تعالى :

﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنـات يبـايعنك علـى ألا يشـركن بـالله شـيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهـن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾[1] .

وهذه القواعد التى أمر بها الإسلام :

أولاً : عدم الشرك لقوله تعالى **﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾**[2] .

ثانيا : عدم إتيان الحدود : السرقة ، والزنا ، والقتل بعامة ، وعدم قتـل الأولاد خاصة ، إشارة إلىما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات ، كمـا أنـه يشـمل قتـل الأجنة لأى سبب من الأسباب . لأن النساء أمينات على ما فى بطونهن .

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١٢

(٢) سورة لقمان آية رقم ١٣

ثالثاً : ﴿**ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن**﴾

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن ، وكذلك قال مقاتل : ولعل هذا التحفظ - بعدالمبايعة علىعدم الزنا - كان للحالات الواقعة فى الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال ، فإذا جاءت بولد نظرت أيهم أقرب شبهاً فألحقته به ، وربما اختارت أحسنهم فألحقت له ابنها وهى تعلم من أبوه .

رابعاً : ﴿ **ولا يعصينك فى معروف** ﴾ .

وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول (ﷺ) فى كل ما يأمرهن به . لقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول** ﴾[1] .

وروى أن النبى (ﷺ) عندما قال فى بيعة النساء : " على ألا يشركن بالله شيئاً " .

قالت هند بنت عتبه وهى منتقبة خوفاً من النبى (ﷺ) أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم أحد :

" والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيتك أخذته على الرجال " .

وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد .

فقال النبى (ﷺ) : " ولا يسرقن " .

فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصيب من ماله قوتنا .

فقال أبو سفيان : هو لك حلال .

فضحك النبى (ﷺ) وعرفها وقال : أنت هند ...؟

---

(١) سورة النساء آية رقم ٥٩

فقالت : عفا الله عما سلف .

ثم قال : ولا يزنين .

فقالت هند : وهل تزنى الحرة ...؟

ثم قال : ولا يقتلن أولادهن أى لا يئدن الموءودات ولا يسقطن الأجنة .

فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر فأنتم وهم أبصر .

كذلك منح الإسلام المرأة حق الهجرة ، والفرار بدينها إلى الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾[1] .

وأعطى الإسلام المرأة : حق مفارقة الزوج إذا أصر على كفره قال تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن** ﴾ [2].

كذلك سوى الإسلام بين المرأة والرجل فى حقها فى الدعوة إلى الله قال تعالى :

﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[3] .

ولا فرق بين الرجل والمرأة إلا بالتقوى والعمل الصالح قال تعالى :

﴿ **من عمل صالحاًمن ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾[4] .

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٥٠

(٢) سورة الممتحنة رقم ١٠

(٣) سورة التوبة آية رقم ٧١

(٤) سورة النحل آية رقم ٩٧

وقال أيضا ﴿ **أنى لا أضيع عمل عـامل منكـم مـن ذكـر أو أنثى بعضكـم مـن بعض** ﴾[1] .

والإسلام منح المرأة حرية مطلقة فى الزواج من الرجل المناسب لها سـواء أكـانت بكراً أم ثيباً ، فلا إجبار لها على زوج لا ترغب فيه ، بل من حقها الزواج بمن تريـد شريطة أن يكون متكافئاً لها فى الدين والأخلاق ، والمزايا النفسية الأخرى .

ولقد بين الرسول (ﷺ) ذلك بقوله :

" لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولاتنكح البكر حتى تسـتأذن . قـالوا يـا رسـول الله وكيف إذنها ...؟ قال : أن تسكت ... "[2] .

و لم يكن أبداً فى تاريخ المسلمين إكراه المرأة على الزواج من رجـل لا تريـده مـن ذلك ما أخرجه النسائى بسنده عن أم المؤمنين عائشـة ــ رضـى الله عنهـا ــ قـالت : جاءت فتاة إلى رسول الله (ﷺ) وقالت : إن أبى زوجنى من ابن أخيـه وأنـا كارهـة لـه . ولا أرغب فى الزواج منه .

فأرسل النبى (ﷺ) إلى أبيها وعندما جاء ـ جعل الأمر إليها .

فقالت : " يا رسول الله إنى أجزت ما صنع أبى ، ولكنى أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شئ "[3] .

يقول الدكتور عبد الواحد وافى : وقد سوى الإسلام كذلك بـين الرجـل والمـرأة أمام القانون ، وفى جميع الحقوق المدنية سواء فى ذلك المرأة المتزوجة وغير المتزوجة . فالزواج فى الإسلام يختلف عن الزواج فى معظم أمم الغرب المسيحى فى أنه لا يفقـد المرأة اسمها ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها فى التعاقد ولا حقها فى التملك ، بـل تظل المرأة المسلمة بعد زواجها محتفظة بإسمها واسم أسرتها وبكامل حقوقها المدنيـة ،

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٩٥

(٢) رواه البخارى فى كتاب النكاح ٦ :١٩١

(٣) رواه النسائى فى كتاب النكاح باب البكر يزوجها أبوها وهى كارهة ٦ : ٧١

وبأهليتها فى تحمل الإلتزامات ، وإجراء مختلف العقود من بيع وشراء ورهن وهبة ووصية وما إلى ذلك ، ومحتفظة بحقها فى التملك تملكاً مستقلاً .

ثم يقول : ولا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً من مالها . قل ذلك أو اكثر قال تعالى:

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا (٢٠) وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض (٢١) ﴾[1] .

وإذا كان لا يجوز للزوج أن يأخذ شيئاً ممن سبق أن آتاه لزوجته فلا يجوز له من باب أولى أن يأخذ شيئاً من ملكها الأصيل إلا أن يكون ذلك برضاها ، وعن طيب نفس منها ... قال تعالى :

﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحله فإن طبن لكم عن شئ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾[2] .

وإذا كان ذلك كذلك فهل يجوز للمرأة أن تكون ملكة أو رئيساً لدولة ...؟

إن الرسول ﴿ﷺ﴾ يقول :

" لا يفلح قوم ولو أمرهم امرأة "[3] .

قال ذلك لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى[4].

---

(١) سورة النساء الآيتان رقم ٢٠ - ٢١

(٢) سورة النساء آية رقم ٤

(٣) الحديث رواه الترمذى والنسائى من حديث حميد عن الحسن عن أبى بكرة عن النبى ﴿ﷺ﴾ - وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٤) راجع كلمة وافية عن اشتغال المرأة بالسياسة فى الجزء الأول عند الحديث عن عائشة أم المؤمنين.

قال الله تعالى:

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ

سورة طه الآيات ٣٨ـ٣٩ـ٤٠

قال رجال التفسير نزلت هذه الآيات في : **موسى عليه السلام وأمه** .

قال ذلك الامام ابن كثير في التفسير ٣ :١٤٧ - ١٤٨ .

وقاله الفخــــر الرازي في التفسير ١١: ٥٠ - ٥١ .

وقاله الامام القرطبــــي في التفسير ١١: ١٩٦-١٩٧ .

وقاله صاحب الدر المنثـــــــور ٤ :٢٩٦-٢٩٧ .

فمن هي أم موسى عليه السلام ... ؟

أم موسى عليه السلام ...

من هى أم موسى عليه السلام ... ؟

وأين ولدت ...؟ وفى أى البلاد ترعرت ... ؟

وما هو الدور الذى قامت به فى حياة موسى عليه السلام ...؟

إن أوثق المصادر التى بين أيدينا تقول : إنها تسمى يوكابد بنت لاوى ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم كثيراً قال الله تعالى :

﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم** ﴾[1] .

وقال عز من قائل :

﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾[2] .

وأيضا ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾[3] .

وجاء ذكرها فى التوراة أيضاً من الاصحاح الثانى من سفر الخروج :

" واتخذ عمران يوكابد زوجة له فولدت له هارون وموسى .

وأيضاً :

" تزوج عمران من عمته يوكابد بنت لاوى ، ولم يكن زوج الأقارب محرماً فى ذلك العهد ، وإنما التحريم قد جاء فيما بعد على يد موسى بعد خروج بنى إسرائيل

---

(١) سورة القصص آية رقم ٧

(٢) سورة القصص آية رقم ١٠

(٣) سورة القصص آية رقم ١٣

من مصر " .

ولا شك أن يوكابد ـ كان مسقط رأسها مصر ـ وفتحت عينيها علـى ميـاه نيلهـا العذب ، وهى تنساب فى سهولة ويسر نحو الشـمال ، واستمتعت بـالخضرة اليانعـة التى تكسو جلّ أرضها .

إنها مصر قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . فى قوله تعالى :

﴿ **وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين** ﴾[1] قال يعنى مصر .

وتعد مصر من خزائن الأرضين لقول يوسف عليه السلام لملك مصر :

﴿ **اجعلنى عاى خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾[2] .

ففعل فأغاث الله الناس بمصر وبمـا فيهـا مـن خـيرات . ولم يذكـر الله عـز وجـل فى كتابه مدينه بعينها بمدح غير مكة ومصر .

قال الله تعالى على لسان فرعون : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهـذه الأنهـار تجـرى من تحتى** ﴾[3] .

وهذا تعظيم ومدح لمصر . بما حباها الله من نعم وخيرات .

وقال تعالى : ﴿ **ادخلو مصر إن شاء الله آمنين** ﴾[4] .

فمدحت لما فيها من الأمن والأمان . ولذلك أوحى الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام كما ذكره القرآن :

﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلـة**

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٥٠

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٥

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٥١

(٤) سورة يوسف آية رقم ٩٩

وأقيموا الصلاة ﴾[1] .

ولا تذكر المصادر متى تم إقتران يوكابد بعمران ، ولكنها تذكر أنها انجبت منه بنتاً اسمها مريم ، ولعلها أكبر من هارون وموسى عليهما السلام ـ كما جاء ذكرها فى القرآن قال تعالى :

﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[2] .

ولكن فى عهد أى ملك من الملوك ولدت يوكابد موسى عليه السلام .

يتفق المؤرخون على أن ولادة موسى عليه السلام كانت فى عهد فرعون أعتى الفراعنة على الله تعالى وأقساهم قلباً وأطولهم عمراً ، ولقد عمل على تصنيف بنى إسرائيل ، فصنف خصهم بالبناء . وصنف آخر للزراعة والحرث ، وصنف ثالث يتولون الأعمال القذرة .

ومن لم يكن منهم أهلاً فعليه الجزية الباهظة ولذلك عبر القرآن عن فعل فرعون بقوله : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾[3] .

وكانت زوجة فرعون امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم ـ وكانت امرأة مؤمنة ولقد حكى القرآن مقولتها بقوله :

﴿ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾[4] وأسلمت على يد موسى عليه السلام .

وتقول بعض المصادر أن فرعون عمر فى قومه أربعمائة سنة يسومهم العذاب ، فلما أراد الله أن يفرج عنهم فبعث موسى عليه السلام .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٨٧

(٢) سورة القصص آية رقم ١١

(٣) سورة البقرة آية رقم ٤٩

(٤) سورة التحريم آية رقم ١١

وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله ، أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها ، وأحرقت القبط، وتركت بنى إسرائيل ، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه .

فقالوا : **يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ، ويغلبك على سلطانك ، ويخرجْك وقومك من أرضك ويبدل دينك ، وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه .**

وما كاد فرعون يسمع ذلك حتى أمر رجاله بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل ، فجمع القوابل من النساء وقال لهن :

" **لايسقط على أيديكن غلام من بنى اسرائيل إلا قتلتنَّه ، ولاجارية إلا تركتّنها للخدمة .** ووكل بهن رجال شرطته والبصاصين من قومه .

ولما لا يفعل ذلك أليس هوالقائل لقومه : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾[1] .

لقد طغى وتجبر ونسى الإله الأعظم ، فلابد أن تنزل به القارعة كما نزلت على غيره من قبله .

قال مجاهد : لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من نساء بنى اسرائيل فيوقفهن عليه فتجرح أقدامهن ، حتى أن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظل تطؤه لتتقى به حد القصب عن قدميها لما بلغ من جهدها .

إن فرعون الذى علا فى الأرض لم يقتل الأطفال فحسب .

و لم يسقط الأجنة من بطون الأمهات وكفى .

ولكنه قتل أيضاً عاطفة الأمومة ، واستل من قلوبهن الرحمة والشفقة .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٣٨

واستمر فى فعله ذلك حتى دخل عليه رءوس القبط وقالوا له : إن الموت قد وقع فى مشايخ بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم ، فيوشك أن يقع العمل علينا ولا طاقة لنا به .

فأمر فرعون عندها بذبح الولدان سنة وتركهم سنة . فولد هارون عليه السلام فى السنة التى لا يذبح فيها أحد فُترك .

ثم مَاذا ...؟ كان الحمل بموسى فى العام الذى أمر فيه بقتل الولدان ، فلما جاء أوان وضعه حزنت أمه حزنا شديداً واشتد غمها وقلقها : فماذا تفعل ...؟

لو كان الحمل يبقى فى بطنها إلى الأبد لاستراحت ...

ولو كان فى الإمكان الفرار به إلى أرض الله الواسعة لفرت ...

إذن ليس هناك من حيلة إلا الصبر ، عندها أسلمت أمرها إلى الله تعالى وأودعت الذى فى بطنها إليه ، وهو الله تعالى الذى لا تضيع ودائعه . وما هى إلا أيام قليلة حتى ولدت هذا الولد المبارك الذى سمى فيما بعد باسم موسى عليه السلام .

ولما حملته بين يديها طاش عقلها وجن جنونها وأوشكت أن تكتم أنفاسه وتسلمه للموت بيديها بدلاً من أن تسلمه إلى قتلة فرعون .

عندها كان أمر الله تعالى الذى ينزل بالرحمة ، ويرفع العذاب عن عبيده ، كان أمر الله الذى لا يرد ، وقضاؤه الذى ينفذ ... قال تعالى :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[1] .

لا تخافى يا أم موسى عليه من الغرق .

ولا تخافى عليه من القتل .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٧

ولا تحزنى إذا قمت بالقائه فى اليم .

ولا تحزنى لفراقه تلك اللحظات المعدودة من عمر الزمن .

﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ .

واستجابت أم موسى لأمر ربها وكلفت رجلاً يسمى "حزقيل" الذى صار فيما بعد " مؤمن آل فرعون " أن يصنع لها تابوتاً يلقى فى اليم فلا ينفذ منه الماء ، وثقيلاً لا تلعب به الأمواج ، ومجوفاً حتى لا يسقط فى القاع . وعندما صنع التابوت وأحضره إليها ، حمدت الله كثيراً ، وألقت فى داخله كمية من القطن المحلوج ، حتى يكون هيناً ليناً على طفلها ، ثم أضجعته فيه وأسلمته إلى اليم .

ويا لها من لحظات قاسية مؤلمة على قلبها أن تلقى بفلذة كبدها إلى المجهول وأن تسلمه إلى الضياع والهلاك ، وأخذ الشيطان يوسوس لها قائلاً :

ماذا صنعت ... ؟ ولماذا فعلت ... ؟ وأى جرم ارتكبت أيتها المرأة ... ؟

لو ذبحته بيديك لكان خيراً ، لو أسلمته للقتلة لكان فى إمكانك أن تسكبى على جسمانه الدمعة الأخيرة ...؟؟

ولكن الله تعالى عصمها من وسوسة الشيطان وربط على قلبها لتكون من المؤمنين فثابت إلى رشدها وتذكرت وعد الله لها .

﴿ إنا رادوه إليك ﴾ .

وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى ، حتى أدخله بين الأشجار ونباتات الماء عند قصر فرعون ، أمام روضته التى هى ملتقى وصيفات زوج فرعون وجواريه .

واستقر التابوت هادئاً مطمئناً تحرسه عناية الله وترعاه ...

يا سبحان الله . لقد ألقى هذا الطفل فى اليم حتى يكون بعيداً عن تلك البلاد وينقله الموج إلى آفاق بعيدة ، لايصل إليها جبروت فرعون ولا تطوله أيدى القتلة

المجرمين .

فمن الذى حول مسار هذا التابوت حتى يذهب إلى قصر الجلاد .

ومن الذى حمى التابوت وهو فى عرض البحر من الطيور الجارحة التى تريده طعمة لها ... ؟

من الذى جعل الموج هادئاً ليناً حتى لا يقذف بالتابوت إلى قاع البحر فيكون الطفل طعمة سائغة لحيتانه وحيواناته ...؟

من فعل ذلك ... أهى الصدفة البلهاء ...؟

أهى الطبيعة العمياء كما يقول العلمانيون ...؟

إن الذى فعل ذلك وأمر به - هو الله الذى إله إلا هو خالق كل شئ ، وكل شئ عنده بمقدار ، وكل شئ عنده بميزان .

ونزلت الجوارى إلى صفحة النهر - كما اعتدن أن ينزلن كل يوم - يدغدغ أجسادهن الغضة رزاز الماء الجميل .

ويداعب شعورهن نسمات الهواء العليل .

وتلامس أناملهن الرقيقة ثمار الأشجار التى تتدلى من أغصانها إلى صفحة الماء لتقبلها قبلة الشكر والعرفان .

وكم كانت دهشتهن وهن يشاهدن هذا التابوت الذى لاشك يحمل ذهباً وفضة فتزاحمن على حمله ، وكل منهن تريد أن تحظى بتقديمه إلى سيدة القصر أسيا زوجة سيدهن فرعون .

ولما استقر التابوت بين يدى آسيا ، وكشف عنه الغطاء ، شاهدت هذا الطفل الجميل ينام فى داخله ، يضع أنمله فى فمه ، وعيناه تحملقان فى الفضاء العريض وكأنه عابد يناجى ربه ، أو ناسك يقبع فى صومعته .

وألقى الله تعالى محبته على قلبها ، فأحبته حباً شديداً وأخذته بين ذراعيها تضمه وتقبله ، وكأنها بهذا الطفل حازت الدنيا بأسرها بين يديها .

وكيف لا تحبه أسيا ، وكيف لا يستقر حبه فى قلوب كل المؤمنين ، والله تعالى يقول :

﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾[1] .

ولكن ما كاد خبر تواجد هذا الطفل يسرى بين أجواء القصر ، حتى برز الموكلون بالذبح يريدون الإجهاز عليه ، وكتم أنفاسه حتى يصير فى عداد المقتولين الذين سفكت دماؤهم بيد التأله الكاذب والعدوان الغاشم .

ولكن المرأة المؤمنة رددتهم عنه رداً جميلاً قائلة :

" انصرفوا فإن أتى فرعون استوهبته منه ، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم " .

إنه منطق العقل والحكمة ، منطق الإيمان والسلام .

وانطلقت المرأة المؤمنة إلى فرعون تحمله على يديها ، وترعاه بعينيها ، وتبتهل إلى ربها أن يجيبها إلى طلبها ويحقق لها رغبتها فى ترقيق قلب فرعون إلى الطفل وعندما كانت بين يدى فرعون قالت :

﴿ قرة عين لى ولك لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾[2] .

وخضع الجبار العنيد ، وسلبت قوته وإرادته .

وقال : قد فعلت .

وغردت الدنيا فى قلب أسيا ، وعادت به من حيث أتت تحمل كنزها ، وهى لا تدرى أن هذا الطفل الوليد . سيكون رسولاً يوحى إليه من ربه ، يدعو إلى عبادة

---

(١) سورة طه آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٩

الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد و لم يولد .

إنه رسول الله الذى سيحطم الألوهية المزيفة ، ويقضى على الجبروت المتأله . إنه رحمة الله إلى الأرض الذى سيقول فيما بعد لفرعون ومعه أخاه هارون :

﴿ إنا رسولا ربك فارسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ﴾[1] .

عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن بنى إسرائيل لما كثروا بأرض مصر استطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصى ، ووافق خيارهم أشرارهم و لم يأمروا بالمعروف و لم ينهوا عن المنكر وصدق فيهم قول الله تعالى :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون(٧٩) ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون(٨٠) ﴾[2] .

عندها سلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب فذبحوا أبناءهم وابقوا نساءهم للتسخير والخدمة .

ويقول بعض رواة التاريخ : إن صانع التابوت عندما سلمه إلى أم موسى . انطلق إلى الذباحين ليخبرهم بأمر الغلام . فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه فلم ينطق ، و لم يبين ، فجعل يشير بيده ، فلم يدر الذباحون ما يريد ، فلما أعياهم أمره . قال كبيرهم : أضربوه . فضربوه وأخرجوه .

فلما خرج صانع التابوت وذهب إلى بيته ، رد الله لسانه فتكلم .

فانطلق أيضاً مرة أخرى يريد الذباحين . ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يستطع الكلام و لم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه .

---

(١) سورة طه آية رقم ٤٧

(٢) سورة المائدة الآيات ٧٨ -٧٩ - ٨٠

وبقى فترة على ذلك لا يتكلم ولا ينطق ، لايبصر ولا يرى ، عنها التجأ إلى ربـه إن رد عليه بصره ولسانه ألا يفعل شيئاً . فعلم الله منـه الصـدق ، فـرد عليـه لسـانه وبصره ، فخر لله ساجداً ، وعلم أن ذلك من الله تعالى ولا راد لقضائه وقدره .

وانطلقت أم موسى بالتـابوت وألقتـه فـى البحـر بعـد أن أرضعتـه ثـلاث أشـهر .
وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرهـا ، وكـانت مـن أكـرم النـاس عليـه وكان لها كل يوم ثلاث مطالب ترفعها إلى أبيها ، وكان بها برص شديد ، وقد جمع لها فرعون الأطباء من مصر وغيرها والكهان والسحرة ، فنظروا فى أمرها وقالوا :

أيها الملك إنا لا نرى برأها إلا من قبـل البحـر ، شئ يوجـد فيـه شـبيه بالإنسـان فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك فى يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا فى ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس .

فلما كان فى يوم الأثنين غدا فرعون إلى مجلس له كـان علـى شـاطئ النيـل ومعـه زوجته آسيا بنت مزاحم ، وأقبلت بنت فرعون وجواريها حتى جلسـن علـى شـاطئ النيل يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن فبينما هن على ذلك إذا أقبل النيل بالتابوت تضربه الإمواج .

فقال فرعون : إن هذا لشئ فى البحر قد تعلق بالشجر ائتونى به .

فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه . وأخذوا فى معالجة فتـح الباب فلم يقدروا على ذلك ، وأرادوا كسره ، فاعجزهم أيضاً .

عندها دنت منه آسيا فرأت فى جوف التـابوت نـوراً لم يـره غيرهـا للأمـر الـذى أراده الله تعالى من إكرامها وهدايتها إلى الإيمان .

وأخذت فى معالجة التابوت ففتح على يديها. فـإذا هـى بصبـى صغـير فـى مهـده والنور بين عينيه ، وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبناً ، فألقى الله تعالى محبة موسى فى قلبها ، وأحبه فرعون وعطف عليه .

وأقبلت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت منه فى الحال ، فقبلته وضمته إلى صدرها .

فقالت الحاشية : أيها الملك إنا نظن أن المولود الذى تحذر منه هو هذا والرأى أن ترمى به فى البحر ، أو تقتله .

فهَّم فرعون أن يأمر الذباحين بقتله ، ولكن آسيا سبقتهم إلى ذلك واستوهبته منه فوهبه لها. ثم قال لزوجته سمى الغلام .

فقالت على الفور : هو موسى لأنه وجد بين الماء والشجر .

وأقيمت الأفراح وتزينت الدولة أن زوجة الملك قد وهبها الله ولداً بعد أن حرمت منه ، إذن لتأتى كل المرضعات ، ولنخف إلى ساحنة كل الحاضنات ، ولكن الطفل يتلوى من الجوع يرفض جميع المرضعات فى إباء وشمم .

إنه يرفض كل ثدى يقدم إليه ، وكل مرضعة تريد أن تضمه إليها .

وسرى فى الكون كلها قول الله تعالى :

﴿ **وحرَّمنا عليه المراضع من قبل** ﴾[1] .

إن التحريم هنا من الله فكيف يقدم على شئ حرمه الله عليه ؟ ولكن أهل فرعون يخشون عليه الذبول أو الموت فلابد من مرضعة ، ولابد من الرضاعة ، ووسط هذه الحيرة والقلق ، تظهر أخته التى قالت لها أمها قصيه :

﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾[2].

فقالوا لها : وما يدريك ... ؟ لعلك تعرفين أهله ...؟ فقالت : لا .

ولكنهم يحرصون على مسرة الملك ، ويرغبون فى ظئره . فقالوا : من هى ...؟

قالت : أمى .

---

(١) ، (٢) سورة القصص آية رقم ١٢

فقيل : لها لبن ...؟

قالت : نعم ، لبن ابنها هارون . وكان ولد فى سنة لا تقتل فيها الصبيان .

فقالوا : صدقت ، ائتينا بها .

فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فأتت فلما وضعته على ثديها ودثرته بحجرها نزل اللبن حتى ملأ جنبيه .

عندها انطلق البشير يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً . فأرسلت إليها فلما شاهدت تعلق الطفل بثدييها .

قالت لها : امكثى عندى ترضعى ابنى هذا ، فإنى لم أحب شيئاً مثل حبه قط ، ولكن المرأة الواثقة من وعد الله تعالى لها .

قالت فى إباء وشمم لا أستطيع أن ادع بيتى وولدى فيضيعوا ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى ، ولا أولى له إلا خيراً فعلت . وإلا فإنى غير تاركة بيتى وولدى .

ولم يكن أمام امرأة فرعون إلا أن تطيع وتذعن لما قالته المرأة .

وهكذا عاد الطفل إلىأمه وصدق وعد الله تعالى لها فرده إليها قال تعالى :

﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[1] .

لقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة ، معافى فى بدنه ، مرموقاً فى مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله ، وهوآمن قرير العين وقد صاغت يد القدرة الإلهية الحلقة الأولى من تدبيرها المحكم .

وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه من كل سوء ، فلما كبر وترعرع رغبت آسية أن

---

(١) سورة القصص آية رقم ١٣

تراه ، فلما دخل عليها أكرمته وفرحت به ، وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ثم قالت لها :

" انطلقى به إلى فرعون ليكرمه ، فما دخلت به على فرعون أخـذه ووضعه فـى حجره ، فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعيران ، وكـان فرعون طويل اللحية ، ويقال : أنه لطم وجهه .

وفى بعض الروايات : أنه كان يلعب بين يدى فرعون وبيده قضيب صغير ، فضرب به على رأس فرعون فغضب غضباً شديداً وتطير منه .

وقال : هذا عدوى المطلوب ووسوس له الشيطان بذلك فأخذ الخوف بمجامع نفسه فلما حدث هذا له : أرسل إلى الذباحين ليقتلوه .

فبلغ ذلك آسية ، فجاءت تسعى إلى فرعون وقالت له :

" ما بدا لك فى هذا الصبى الذى قد وهبته لى ، فأخبرها بما فعل موسى .

فقالت له : إنما هو صبى لا يعقل ، وأنا أجعل بينى وبينك أمراً تعرف به الحق ، وأضع له حلياً من الذهب والياقوت ، وأضع له جمراً .

فإن أخذ الياقوت فو يعقل فاذبحه .

وإن أخذ الجمرة علمت أنه صبى ...؟؟

ثم وضعت له طستاً فيه الذهب والياقوت ، وطستاً آخر فيه الجمرة . فمد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه فحول جبريل عليه السلام يده إلى الجمر فقبض على جمرة ، ووضعها فى فيه فجاءت على لسانه فأحرقته ، وذلك ما حكاه القرآن الكريم عند قوله :

﴿ واحلل عقدة من لسانى يفقه قولى ﴾[1] .

---

(١) سورة طه آية رقم ٢٧

عندها قالت لـه آسـية ألا تـرى إلى فعلـه وأنـه صبـى لا يعقـل ، فكـف عـن قتلـه وصرف الله عنه ذلك السوء ... فلم يزل عزيزاً مكرماً فى بيت فرعون وحببه الله إليه وإلى الناس كلهم . حتى منَّ الله عليه وأكرمه بالرسالة .

ونسائل التاريخ أين أم موســـى عندما دخل ابنهـا المدينـة علـى حـين غفلـة مـن أهلها ... ؟

وأين هى عندما خرج من المدينة خائفاً يترقب ...؟ وطلب من ربه تعالى أن ينجيـه من القوم الظالمين .

هل كانت على قيد الحياة ...؟ تراقب خطوات ابنها وهو يخطو نحو المجهول أم أنها فارقت الحياة ، قبل ذلك

إن كتب التاريخ والكثير من المصادر لا تذكرهـا بعـد مـا كـان بينهـا وبـين آسـية زوجة فرعون ـ إلا لماماً ، رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها فسيح جناته .

أسباب النزول

عن سعيد بن جبير رضى الله عنه قال : سألت ابن عباس - رضى الله عنهما - عن قول الله تعالى لموسى عليه السلام :

﴿ **وفتناك فتونا** ﴾[1] .

قال : فسألت عن الفتون ما هو ... ؟

فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً .

فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأنجز ما وعدني من حديث الفتون ... فقال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم عليه السلام من أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً :

فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه ، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف ابن يعقوب عليه السلام ، فلما هلك قالوا : ليس هذا كان وعد الله لإبراهيم .

قال فرعون : فكيف ترون ...؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً إلا ذبحوه ففعلوا .

فلما رأوا أن الكبار يموتون بآجالهم ، وأن الصغار يذبحون قالوا يوشك أن يفنى بنو إسرائيل فتصيروا تباشروا الأعمال والخدمة - التى كان بنو إسرائيل يكفونكم . والرأى أن تقتلوا أولادهم عاماً ، ودعوا عاماً لا تقتلونهم ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم ، ولن يفنوا بمن

(١) سورة طه آية رقم ٤٠

تقتلون فتحتاجون إليهم . فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون في العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدت علانية آمنة ، حتى إذا كان في العام التالى : حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، فذلك من الفتون يا ابن جبير لما دخل عليه فى بطن أمه ما يراد به ، فأوحى الله إليها :

﴿ ألا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[1] .

وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم تلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ما أمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان ، وقالت فى نفسها :

" ما فعلت بابنى لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلىَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ، فانطلق به الماء إلى أن أوفى عند مستقى جوارى امرأة فرعون فرأينه فأخذنه فهممن أن يفتحن الباب .

فقال بعضهن لبعض إن فى هذا التابوت لمالاً وإنا إن فتحناه فلم تصدقنا امرأة الملك لما وجدنا فيه فحملنه بهيئته لم يحركن منه شيئاً حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه الغلام فألقى عليها محبة لم تلومنها على أحد من البشر قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شئ ، إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه . وذلك من الفتون يا ابن جبير ... ؟؟

فقالت للذباحين : إن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل ، وإنى آتى فرعون فاستوهبه منه فإن وهبه لى فقد أحسنتم وأجملتم . وإن أمر بذبحه لم ألمكم .

فلما أتت به فرعون : قالت : قرة عين لى ولك لا تقتلوه .

قال فرعون: يكون لك وأما أنا فلا حاجة لى فيه .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٧

قال الرسول ﴿ﷺ﴾ " والذى يحلف به لو أقرَّ فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه ا لله كما هدى امرأته ، ولكن ا لله عز وجل حرمه ذلك ... " .

عندها أرسلت امرأة فرعون إلى من حولها من كل امرأة لها لبن تختار له ظئراً ، فكلما أخذته امرأة لترضعه لم يقبل ثديها .

حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع عن اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً ، يأخذه منها فلم يتقدم أحد .

وأصبحت أم موسى والهة فقالت لأخته قصيه ، واطلبيه هل تسمعين له ذكر...؟

أحى أم قد أكلته دواب البحر ... ؟ ونسيت الذى كان وعدها ا لله ، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون .

فقالت من الفرح : حين أعياهم الظآئر أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون .

فقالوا : وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه ؟ حتى شكوا فى ذلك .

وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت الأخت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى جانب الملك رجاء شفقته فتركوها فانطلقت إلى أمه فاخبرتها الخبر .

فجاءت فلما وضعته فى حجرها نزل اللبن من ثديها فمصه حتى إمتلأ جنباه رياً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجد لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها . وقالت لها : امكثى عندى ارضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئاً قبل مثل حبه .

قالت : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى ولا آلوه خيراً فعلت ، وإلا فإنى غير تاركة بيتى وولدى ، وذكرت أم موسى ما كان ا لله عز وجل وعدها به فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك ، وأيقنت أن ا لله عز وجل منجز وعده فرجعت بإبنها من

يومهـا » [1] وصدق ربى فى قوله تعالى :

﴿ فرددناه إلى أمه كى تقـر عينهـا ولا تحـزن ولتعلـم أن وعـد الله حـق ولكـن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

(١) أخرجه ابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد ، النسائى ، وأبـو يعلـى ، وابـن جرير ، وابـن المنـذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه عن سعيد بن جبير رضى الله عنه .

(٢) سورة القصص آية رقم ١٣

قال الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

سورة البقرة آية رقم ٢١٨

هذه الآية الكريمة هل نزلت فى حادثة معينة ... ؟

أم أنها دعوة إلى الهجرة إلى الله ، والفرار إليه ... ؟

وهل هى خاصة بالمهاجرين من الرجال فقط ...؟

أم تراها تعم الرجال والنساء ... ؟

إن الرأى الراجح يقول : إن هذه الآية تشمل كل المهاجرين والمهاجرات ، ولقد هاجرت أسماء إلى مدينة الرسول (ﷺ) فهل يمكن أن تشملها هذه الآيـــة ... ؟

وإذا كان ذلك كذلك فمن هى أسماء ذات النطاقين ... ؟

أسماء بنت أبى بكر الصديق
رضى الله عنها

والدها أبو بكر الصديق رضى الله عنه أول من آمن بالرسول «ﷺ» والذى قدم ماله كله فى سبيل الدعوة إلى الله ، وعندما سأله الرسول «ﷺ» ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ...؟

قال : تركت لهم الله ورسوله .

ورفيق الرسول «ﷺ» فى الهجرة إلى يثرب .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾[1] .

وصاحبه هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وأختها عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ وزوج الرسول «ﷺ» وأحب الناس إلى قلبه ، وعندما حدثت حادثة الإفك ، نزلت براءتها من السماء قال الله تعالى :

﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم (١١) لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٠

إفك مبين (١٢) ﴾[1] .

وزوجها الزبير بن العوام الذى قال عنه رسول الله (ﷺ) :

" إن لكل نبى حوارياً وحوارى الزبير " .

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة الذين توفى رسول الله (ﷺ) وهو عنهم راض .

أما عن أسماء : فهى ولدت قبل الهجرة بسبعة وعشرين عاماً وامتدَّ بها العمر لتموت بعد الهجرة بثلاثة وسبعين عاماً .

أى أنها عاشت قرناً كاملاً من الزمن .

ولقد التفت التاريخ إليها ليسجل أعمالها من تاريخ الهجرة عندما أطلق عليها رسول الله (ﷺ) ذات النطاقين .

من ذلك أنه فى ليلة من الليالى دخل رسول الله (ﷺ) ليبلغ أبا بكر أباها بقرار الهجرة إلى يثرب .

ولقد اتخذ الرسول (ﷺ) هذا القرار بعدأن اجتمعت قريش فى دار الندوة ومعهم إبليس اللعين ، واقترح عليهم أبو جهل أن تختار كل قبيلة شاباً منها ثم يهجم هؤلاء الشباب مجتمعين فيضربوا محمداً (ﷺ) ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل ، ولا تستطيع بنى هاشم أن تعادى قريشاً كلها لأنهم لا قدرة لهم على ذلك .

وهكذا خرج الرسول (ﷺ) مع صاحبه أبى بكر ، إلى غار فى جبل ثور واختبأ هناك .

وفى الصباح علمت قريش بخروج الرسول (ﷺ) ، فأرسلت بعض فرسانها لمطاردته والعودة به إلى مكة .

---

(١) سورة النور آية رقم ١١ - ١٢

وفى المساء - كانت أسماء بنت أبى بكـر وحدهـا ، دون جماعـة المسـلمين تحمـل الطعام والشراب إلى النبى (ﷺ) فى مخبئه .

وفى الليلة الثالثة ، وصل الدليل عبـد الله بـن أريقـط ، فخـرج النبـى وصاحبـه استعداداً للرحيل ، فحملت أسماء سـفرة الطعـام ولم تجـد مـا تربطهـا بـه إلى الناقـة ، ففكت نطاقها وشقته نصفين ، ربطت السفرة بأحدهما ، وانتطقـت بالشـق الآخـر ومن ذلك التاريخ لقِّبت بذات النطاقين .

ولم تكد أسماء تعود إلى البيت وتستقر بداخله ، حتى قرع الباب ، وأطل عليهم نفر من قريش على رأسهم أبو جهل وسألها : أين أباك ... ؟

ولكنها أنكرت معرفتها أين ذهب أبوها .

وأخذ عدو الله فى محاورتها ، عله يأخذ منها بصيصاً من النور يدله علـى أبيهـا وصاحبه ، وعندما أصرت أسماء على موقفها لطمها عدو الله أبو جهل لطمة عنيفـة أطاحت قرطها وكانت لها آثارها السيئة على أذنها لفترة طويلة .؟؟

ولقد دخلت أسماء بنت أبى بكـر إلى الإسـلام فـى وقـت مبكـر ، وكـانت مـن أولئك الذين أضاء الله قلوبهم بنوره فى بدء الدعوة إلى الإسلام .

ثم تزوجت الزبير بن العـوام . فكـانت لـه الزوجـة المخلصـة أم البنـين والبنـات ، وكانت تكبر أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها بعشر سنوات ، وقـد شـهدت قتله بعد معركة الجمل ، فكان حزنها فيه كبيراً ، وتمنت اللحاق به . ولكن لكـل أجـل كتاب .

وتكر الأيام وتمر الليالى ويبايع أبنها خليفة للمسلمين ، والذى كان موطنـه مكـة المكرمة ، ولكن بنو أمية ، لم يسلموا له بذلـك ، وخـرج جيـش جـرار مـن الشـام بقيادة الحجاج الثقفى ، ليجبره على التنازل أو يقتلـه إن رفـض الأولى ، وتم حصـار مكة على من فيها ، وأخذت المناوشات بين القوة الضاربـة التـى جـاءت مـن الشـام

والقوة المؤمنة الصابرة داخل مكة ، وكان الهول كبيراً ، تساقطت قذائف المنجنيق على أعمدة الكعبة ، وأخذ أتباع عبد الله بن الزبير ، يفرون منه ، ويتركون خليفتهم للمصير المجهول .

عندها ذهب عبد الله إلى أمه أسماء ، وقد بلغت مائة سنة ، وأصبحت عمياء فقال : يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق معى إلا اليسير .

فقالت الأم : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية .

وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين .

ثم تابعت حديثها قائلة : كم خلودك فى هذه الفانية ....؟

القتل أحسن ... ؟؟

فدنا منها وقبل رأسها وقال : هذا والله رأيى يا أماه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى .

ثم أقترب من أمه قائلاً : فانظرى يا أماه ، إنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى الأمر لله تعالى .

قالت الأم المكلومة : صدقت يا بنى أتم الله عليك بصيرتك ، وادن منى أودعك فدنا منها فقبلها وعانقها . ثم خرج إلى القتال . وظل يقاتل حتى قتل .

ولقد وضع الحجاج جثة عبد الله بن الزبير على خشبة ورفعها ، وحلف ألا ينزله من عليها حتى تشفع فيه أمه .

لكن أسماء المؤمنة الصابرة ، أبت أن تخفض رأسها للحجاج أبداً ، وهى تعلم أن

أبنها مات شهيداً فى سبيل الله وذهبت روحه إلى ربه ، وهو حى يرزق كما قال تعالى :

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[1]

فظل معلقاً سنة كاملة حتى مرت تحته وقالت :

أما آن لهذا الفارس أن يترجل ... ؟؟

ففسر كلامها على أنه شفاعة فأنزل ... ؟؟

وفى رواية أن عبد الله بن مروان أمر بانزاله ، وكانت أمه تقول : اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته .

وحين حدث هذا واستقرت الجثة فى قبرها ماتت بعده بأسبوع واحد .

وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج دخل فى يوم من الأيام على أسماء متكبراً وقال لها : كيف رأيتنى صنعت بإبنك ... ؟

فقالت : أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .؟؟

إنها المرأة الحكيمة المؤمنة .

إنها بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ولقد أكتسبت أسماء من أبيها الكثير من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة ، إنها الأم التى ربت فأحسنت التربية ، وتزوجت ، فكانت زوجة مثالية ، وهاجرت بدينها ، وفرت إلى ربها ، وسجل التاريخ أسمها على جبهته بأحرف من نور ...

ونتساءل لو عادت أسماء ذات النطاقين إلى حياتنا المعاصرة ، وأرادت أن توصى بنات جنسها وهن مقبلات على الزواج فماذا تراها قائلة لهن حتى يصبحن زوجات صالحات ، وأمهات بارات ، ونساء مسلمات محصنات ... ؟

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٦٩

تذييل

قلنا في حديثنا السابق أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها — الصابرة المؤمنة ، القانتة الصادقة ، الأم الحنون ، والزوجة الوفية ، لوعادت إلى حياتنا المعاصرة — تلك الحياة التي طغت عليها الأفكار الوافدة من الشرق والغرب فهي تغزو وتسلب وتغير وتبدل .

وأرادت إحدى الفتيات المسلمات أن تستعين بخبرتها في الحياة ، وبتجربتها في معاملة زوجها — حتى تقام حياة أسرية سعيدة — فماذا تراها قائلة لها ...

إننا نتصور أن تبدأ حديثها معها بقولها :

ابنتي المسلمة : إن العلاقة بينك وبين زوجك يجب أن تقوم على الحب والمودة ، بحيث يأتلف بها قلباكما ، وتتصل بها روحاكما وحتى يصبح كلاكما موضع سرّ الآخر وشريكه في البؤس والرخاء ... ويجب أن يكون بينك وبين زوجك من الملازمة والاتصال الأبدى ما يكون بين الجسد والثوب . فأنت وكل زوجة ، موضع الراحة والسكينة لأزواجكن ، ولا وظيفة فطرية إلا أن تهيّئ منكن لزوجها أمنه وسكينته وراحته .

وأول نصيحة أقدمها لك :

" أن تطيعي زوجك فيما يأمرك به سراً وعلانية ، لأن الطاعة مجلبة للهناء والرضا والمخالفة تولد الشحناء والبغضاء .

وطاعة الزوج أمر من الرسول ﷺ عندما قال لأم سلمة :

«إذا أدت المرأة فريضة ربها وأطاعت زوجها ، وحركت المغزل كانت كأنها تسبح لله»[1] .

وقال عليه السلام : جهاد المرأة «حسن التبعل» أي طاعة الزوج والتزين له .

وقيل له : يا رسول الله : أي النساء أفضل؟ .

فقال : ﷺ : التي تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر»[2] .

وطاعة المرأة لزوجها يقيم الأسرة المتماسكة التي يكون فيها الولدان قدوة لأولادهما ، فينشئوا على طاعة الوالدين لما يرون في برّ الوالدين وطاعتهما النموذج الكريم للتطاوع وعدم التخالف .

وكم يسيء إلى الأولاد موقف الأم النشاز من أمر الوالد ويثير فيهم النفور والتمزق ، وربما دفع إلى عدم احترام الوالدين على الكبر ، مما يرون في الوالدين من خلاف ونزاع وشقاق .

ولكي تعرفي ما في طاعة الزوج من إرضاء لله وإرضاء للرسول ﷺ وإقامة دعائم البيت على المحبة والولاء .. أضع بين يديك هذه الواقعة التي حدثت في عهد الرسول عليه السلام .

« ... قدم معاذ بن جبل من الشام وعندما رأى رسول الله ﷺ سجد بين يديه . فقال عليه السلام : ما هذا .. ؟

قال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك .

(١) تقدم تخريجه ص ٢٠ ت (٢) .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٠ ت (٣) .

قال : فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[1] . ثم قال عليه السلام :

«والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها»[2] .

ثانياً يا بنيتي :

لا تغادري بيت زوجك إلا بأمره ، ولا تذهبي إلى أهلك إلا بإذنه لأن خروجك من بيتك إلى أي مكان بغير علم زوجك .. فيه إشارة إلى عدم الاهتمام به أو المحافظة عليه . ويذكرني موقفك هذا بالمرأة التي أرادت أن تتزوج فجاءت إلى الرسول ﷺ وقالت يا رسول الله ما حق الزوج .. ؟

إنها أرادت أن تعرف حقوق زوجها — قبل الارتباط به — حتى تؤديها وتعود نفسها على القيام بها فقال :

«إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها وراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه . ومن حقه ألا تعطي شيئاً من بيته إلا بإذنه فإن فعلت كان الوزر عليها والأجر له . ومن حقه ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبّل منها . وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب» .

إن خروجها يهدّد العش الآمن الدافئ المستقر الراضي بالآلام والمخاوف والقلق ، وهذه هي معاول الهدم للسعادة الأسرية .

ثالثاً يا بنيتي :

أرى أن تهتمي بتربية أولادك وتعويدهم على اتباع الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن ، ولا شك أن زوجك يضرب في فجاج الأرض ليهيّئ لك ولأولادكما حياة هانئة مستقرة .. فعليك أن تكوني راعية في بيتك ومسئولة عن رعيتك .

---

(١) أخرجه ابن ماجه باب [٤] حق الزوج على المرأة ، أحاديث رقم ١٨٥٢ — ١٨٥٤ ، جـ ١ ص ٥٩٥ .

(٢) أخرجه أحمد ٤ / ٣٨١ ، وابن ماجه (١٨٥٣) .

وقد امتدح النبي ﷺ نساء قريش معلّلًا فضلهنّ على غيرهن. بأنهن أحناهنّ على ولد.

والمرأة التي تترك أولادها للخدم أو الشارع إنما ترمي في الهاوية بمستقبلها ومستقبل أبنائها.

إن الطفل — يا بنيتي — يتعلم من أمه كل شيء. والأم التي تملأ البيت صراخاً إنما تصبّ في هذا القالب المرذول من الصوت الصاخب أسلوب أبنائها في الحديث.

والأم الصادقة — والتي تنكر ذاتها من أجل الغير — تورث أبناءها هذه الصفة التي يحتاجها المجتمع الإسلامي.

والأم التي تحترم زوجها وتقدر أهل الفضيلة والدين، وتتحاشى الرذيلة وتنفر منها ومن صحبة أهليها، تورث هذه العادة أبناءها وبناتها فيشبّون على الفضيلة نافرين من الرذيلة.

والأم التي تحرص على النظافة في نفسها وبيتها كما تحرص على ترتيب وتنظيم الأثاث وتنسيقه، إنما تزرع هذه العادة في أبنائها فلا يستثقلون أعباء النظافة والنظام. لأنهم سوف لا يجدون لهم راحة ولا يهنأ لهم مقام إلا إذا نهضوا إلى النظافة والنظام.

... ثم لا تنسي أن تعتني بمرأى زوجك ومسمعه.. وذلك بأن يرى بيتك نظيفاً رتيباً وأن يرى النظام والذوق في متاعه.. وأن يرى في أولاده التربية والأدب.

رابعاً يا بنيتي:

أن تقومي بخدمة بيتك، لأنه واجب عليك. ولا شك أن العمل منك في داخل البيت أول دليل على تعاون الأسرة وتماسكها. ولتعلمي أنك لست أول واحدة تقوم بخدمة بيتها ولن تكوني الأخيرة يستوي في ذلك الغنية والفقيرة.

وتعالي معاً نستمع إلى قصة أسماء بنت أبي بكر الصديق — رضي الله عنها — وهي تتحدث عن خدمتها في بيتها. قالت:

تزوجنى الزبير بن العوام ، وما له فى الأرض من مال غير فرسه وناقته . فكنت أعلف فرسه وأسوسه ، وأدق النوى لناقته ، وأستقى الماء وأخبط الدلو وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ ـ حتى أرسل إلىّ أبو بكر بخادم يكفينى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى ، فجئت يوماً والنوى على رأسى فدعانى رسول الله (ﷺ) لأركب خلفه على ناقته ـ فاستحييت أن أسير مع الرجال وذكرت الزبير وغيرته ـ وكان أغير الناس ـ فعرف رسول الله انى استحييت فلم يثقل علىّ[1] .

فجئت الزبير فقلت : لقينى رسول الله (ﷺ) وعلى رأسى النوى ــ ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب معه فاستحييت وعرفت غيرتك .

فقال : والله لحملك النوى كان أشد علىّ من ركوبك معه ...؟؟

قالت: واستمر وضعى على ذلك حتى أرسل إلىّ أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتنى مؤنة الفرس فكأنما أعتقنى .

وتتابع أسماء رضى الله عنها حديثها إلى الفتاة المعاصرة قائلة :

والنظافة يا بنيتى للمرأة ألزم من الجمال ، لأن الجمال لا يلبث أن يزول متى زالت نضارة الشباب ، أما النظافة فعادة باقية ما بقيت المرأة ، ولذا حث الإسلام عليها .

ولا شك أن المرأة التى تهمل نظافة نفسها تعمل على إبعاد زوجها بيدها ليرتمى فى أحضان أخرى نظيفة .

وتحضرنى يا بنيتى هذه الوصية التى قدمتها امرأة لابنتها قالت : لا تنسى نظافة بدنك فإن نظافته تحبب زوجك إليك ، ونظافة بيتك تشرح صدرك ، وتصلح مزاجك ، وتنير وجهك ، وتجعلك جميلة .

---

(١) إسناده صحيح ، وهو فى " طبقات ابن سعد" ٢٨٠/٨ ، وأخرجه البخارى ٢٨١/٩ ، ٢٨٢ ، ومسلم (٢١٨٢) ، وأحمد ٣٤٧/٦و٣٥٢ .

ومحبوبة ومكرمة عند زوجك، ومشكورة من أهلك، ومن ذويك وأترابك وزائراتك. وكل من يراك نظيفة الجسم والبيت تطيب نفسه ويسرّ خاطره.

هذا فضلاً عما للنظافة من تأثير في توطيد أركان الصحة والصفاء، وما للقذارة من أثر في جلب الأمراض والشقاء»[1].

وإياك يا بنيتي والكذب على زوجك. لأن الكذب يوجد في نفس الرجل الشك والارتياب وهما سم الحياة الزوجية.

وإياك وشدة الانفعالات العصبية فهي تجعل البيت شبه جحيم وتجعل زوجك يفر منه. ويهرب من البقاء فيه.

لا تسرفي يا بنيتي في التجميل متى كان زوجك غيوراً لأن ذلك يغضب الغيور، ويثيره، ويلقي في قلبه أن زوجه تتجمل لسواه حتى ولو لم تكن في الواقع ذلك.

وإياك والإسراف في مدح أي رجل غريب أمام زوجك، فلا يصدر المدح منك بحسن نية، ولكن الزوج يكره أن تمدح امرأته رجلاً غريباً على مسمع منه، بل ولا يحب أن يسمع تفضيل مخلوق عليه.

وإياك يا بنيتي: والبطنة — الأكل الكثير — فإنه يفسد الجمال، ويجلب السمنة، وينحدر بالمرأة إلى مصاف الحيوان.

وبمناسبة الطعام والتخمة.. أذكرك بالمحافظة على صحتك، وتجنبي ما يشوّه نضارتك من الأصباغ المغرية التي تدخل المسام وتلتصق حتى إذا ما سقطت تركت مكانها ثقوباً صغيرة في الجلد، تزداد مرة بعد مرة حتى تفقد الجلد لمعته الطبيعية التي تشاهد في الوجوه النضرة الشابة والتي لم تلابسها الأصباغ والمساحيق.

وقد لوحظ أن الأصباغ التي تلوّن بها الشفاه تتبلور مع اللعاب فتفرزها الكلى

---

(١) سعادة الزوجين جـ ١.

سموماً ، بسببها تتكاثر ظاهرة الإجهاض وتشنجات الحمل في المستعملات المساحيق أكثر منها في غيرهن.

ومن النصائح التي أوصت بها أمريكية ابنتها قولها :

لا يبرح من ذهنك أنك تزوجت بإنسان لا بكائن فوق البشر فلا تأخذك دهشة مما ترينه فيه من النقص والعيب.

وقد يكون زوجك بلا قلب ، ولكن له على كل حال معدة يجب إرضاؤها بتهيئة ما تشتهيه من الأطعمة.

واتركي له من آن إلى آخر الكلمة الأخيرة ، والقول الفصل.. في هذا ما يسره ولا يضرك.

ودعيه يعتقد — من آن إلى آخر — انه أكثر منك علماً وأغزر معرفة فإن في هذا الاعتقاد ما يسره ، ويرضي عواطفه — باعتبار كونه رجلاً ».

وأخيراً تيقني أنك لا تقدرين على محاربة الرجل بسلاحه «قوته في لفظه وكفه وعناده»[1].

لأنه ثقيل في يديك النضيرة ، وإنك لتتعبين من حمله ، وسيريك الزمان أن أسلحة المرأة الماضية «الحادة» هي الجمال والاستسلام والحلم واللطف والسكينة والاتكال والخل والحنان والبكاء . ولعلك تظنينها أسلحة ضعيفة.. ولكن أؤكد لك أنها إذا شحذتها الحمية والأمانة كانت ماضية جداً ، كافية لأن ترقرق الطباع الخشنة وتخفض من غرور الرجل ، وتحطّ من كبريائه حتى يأتي إليك بقلبه الكبير وببسمته العريضة التي تشيع في داخلك الأمن والطمأنينة وتملأ حياتك بالبهجة والسرور.

وهنا قالت الفتاة أكلّ هذا واجبات تقوم بها الزوجة ؟ فماذا ترى الواجبات التي يقوم بها الرجل..؟

---

(١) المرأة في التصور الإسلامي. عبد المتعال الجابري.

فقالت لها : واجبات الرجل كثيرة لا تحصى ، متشعبة لا يمكن حصرها فمن الواجبات التي يقوم بها الرجل :

الانفاق على قدر حالته المادية : قال تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[1] .

وسأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً : ما حق زوجة أحدنا عليه قال :

«أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت»[2] .

ومن الواجبات المعاشرة بالمعروف قال تعالى ﴿وعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[3] .

ومن المعاشرة بالمعروف أن يتحبّب إليها ويناديها بأحبّ الأسماء إليها وأن يكرمها بما يرضيها . قال ﷺ :

«ما أكرم النساء إلا كريم» .

ومنها أن يحلم عليها إذا غضبت ، ويصبر عليها إذا حمقت ومنها أن يستمع إلى حديثها ويحترم رأيها ويأخذ بمشورتها إذا أشارت عليه برأي جيد . ولقد أخذ رسول الله ﷺ برأي أم سلمة يوم الحديبية فكان في ذلك سلامة المسلمين» .

ومن تلك المعاشرة بالمعروف أن يقدم لها هدايا مناسبة في مناسبات يدخل بذلك السرور على قلبها ، ويبلغ قصده من رضاها قال ﷺ :

«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[4] .

---

(١) سورة الطلاق آية رقم ٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٠) في النكاح : باب حق المرأة على الزوج .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٩ .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٩٢) ، والدارمي ١ / ١٥٩ ، وابن ماجه ، حديث رقم ١٩٧٧ ، جـ ١ ص ٦٣٦ .

ومنها أن يعلمها دينها ومكارم الأخلاق وعن علي رضي الله : قال : «علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم».

ومن واجبات الرجل : أن يغار عليها في دينها ونفسها وكرامتها : لأن الزوجة أعظم ما يكنزه المرء ، ولا يجوز أن يجعلها مضغة في الأفواه تلوكها الألسنة ، وتتقحمها الأعين ، وتجرحها الأفكار والخواطر. والغيرة من أخص صفات الرجل الشهم الكريم ، وإن تمكنها منه ليدل دلالة فعلية على رسوخه في مقام الرجوله الحقة الشريفة ، ومن هنا كان كرام الرجال وأفذاذ الشجعان يمتدحون بالغيرة على نسائهم والمحافظة عليهن وأن من شرّ صفات السوء ضعف الغيرة وموت النخوة ولا يركن إلى ذلك إلا الأرذلون.

يقول صاحب كتاب المرأة المسلمة : ولكن ما معنى الغيرة وما دلالاتها؟ هل الغيرة سوء ظن بالمرأة واتهام لها بالفطرة كما كان يزعم اليونان قديماً ومن جاء بعدهم من الذين يقولون عند كل جريمة فتش عن المرأة. لا : إن المرأة في الاسلام أخت الرجل وهي مسئولة مسئولية كاملة عند الله عما قدمت وأخرت. وقد نظم الاسلام هذا الأمر فيما يلي :

١ ــ أن لا تأذن لأحد بدخول بيته من رجل أو امرأة قريبة أو بعيدة إلا بإذنه فهو أدرى بمصلحة الأسرة لأنه القيّم عليها فقد يكون في دخول أبيها وأخيها وأمها مفسدة عليه في أسرته.

أما الأجنبي فلا تأذن بدخوله ، ولو أذن الزوج لأنه إثم ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولا يدخل هو عليها من لا يخاف الله تعالى ، فقد يخون بنظرة أو كلمة ويرمي في البيت شرارة فتنة قال رسول الله ﷺ «إياكم والدخول على النساء قالوا يا رسول

الله . أرأيت الحمو ..؟ قال الحمو الموت[1] .. والحمو أقارب الزوج أو الزوجة.

وقال ﷺ ثلاثة لا يدخلون الجنة :

مدمن الخمر.

والعاق لوالديه.

والديوث : الذي يقر الخبث في أهله أو لا يبالي من دخل على أهله »[2] .

وألا تخالط بغير حضوره أقاربه وأصدقائه فربما أرادوها بسوء ، وربما بلغوا منها ما يريدون من السوء مع وقوع الإثم بمجرد الاختلاط بهم.

وقيل لأعرابية شريفة : كيف زنيت وأنت كريمة في قومك ..؟

قالت : قرب الوساد وطول السواد.

.. وبعد : هذه بعض الأسس التي وضعها الإسلام لقيام الأسرة المسلمة وسعادتها .. وما أحرى المجتمع الإسلامي في عصرنا الراهن أن يتمسك بها ويسير على هديها — حتى لا تحلّ به الهموم والنكبات التي حلّت بالأمم الأخرى عندما ساروا وراء شهواتهم ورغباتهم فهل تراهم سعدوا بذلك ...؟

إن الإحصائيات لتدلّ على أنهم فقدوا السعادة ، وتحولوا إلى آلات صماء

---

(١) أخرجه البخاري ٩ / ٢٩٠ في النكاح ، ومسلم (٢١٧٢) في السلام ، والترمذي (١١٧١) في الرضاع.

(٢) أخرجه الحاكم ١ / ٧٢ من طريق عبد الله بن عمر ، بلفظ : ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق بوالديه ، والديوث ، ورجلة النساء ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأخرجه النسائي ٥ / ٨٠ في الزكاة عن ابن عمر أيضاً بلفظ : ثلثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ، والديوث ، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن للخمر ، والمنان بما أعطى.

تنقصها الروح.. وكثرت فيهم الأمراض العصبية.. والنفسية بالرغم مما بلغوه من أوج الحضارة المادية..

فهل نحن معتبرون بذلك..؟ لنعود الى كتاب الله..؟ ونقيم حياتنا على هديه..
نرجو ذلك من الله...

قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

أقوال العلماء في نزول الآيات

قال كثير من رجال التفسير والحديث نزلت هذه الآية في كبشة بنت معن الأنصارية

قال ذلك الإمام البخاري ٦ : ٤٤ ، ٩ : ٢١ .

وقاله الإمام الطبري في تفسيره ٨ : ١٠٤ .

وقاله الإمام القرطبي في التفسير ٥ : ٩٤ .

وابن حجر في كتاب الاصابة ٤ : ١٦٠-١٦٢ .

وصاحب الدر المنثور ٢ : ١٣١ .

فمن هي كبشة بنت معن الأنصارية .. ؟

كبشة بنت معن الأنصارية

والدها معن بن عاصم كان فارساً مغواراً ، خبيراً بصهوات الخيل ، حكيماً في إدارة المعارك وجندلة الفرسان .

وكان كريماً مضيافاً في أوقات السلم يقضي جلَّ وقته بين حدائقه ومزارعه يتعهد أشجارها ويتفقد نضج ثمارها ، ويقدم الكثير من غلاتها لذوي الحاجات وأبناء السبيل .

ولقد رزقه الله تعالى بالكثير من الأبناء النجباء الذين كانوا له خير معين في متطلبات الحياة ، وحماية القبيلة . ولم يرزق من البنات إلا بالإبنة الغالية المتفردة كبشة.

وهو من قبيلة الخزرج التي أفردت لها كتب التاريخ صفحات مطولة بالفخار والمجد ، ونعتت رجالها بالإقدام والشجاعة في ساحات القتال ، وبجميل الأخلاق وحسن الأحدوثة في المعاملات .

ولقد مات الوالد قبل مبعث الرسول (ﷺ) وكانت كبشة في ذلك الوقت طفلة تحبو ، وما لبثت أن لحقت به الأم .

فقام إخوتها بالرعاية والتوجيه ، وحسن الأدب وطيب المعاملة حتى شبت عن الطوق ، ودخلت في مرحلة الشباب . يصفها الرواة بأنها كانت صبوحة الوجه ، فارعة القد ، جميلة العينين ، حلوة السجايا الأمر الذي جعل شباب يثرب كل منهم حريص على الظفر بها زوجة تحمل حياته ، وتؤنس وحشته ، ويرزقه الله منها بالبنين والبنات ، ولكن أخواتها ، كانوا يضنون بها على الخطاب ويردونهم رداً جميلاً بحجة صغر سنها ، وقلة خبرتها بشئون الحياة والزواج .

ومرت الأيام بها رخية حلوة ، هادئة طيبة - حتى كان يوم تقدم لخطبتها أبوقيس بن الأسلت الذي كان يعدل بقيس بن الخطيم في الشجاعة والشعر فبارك أخوتها هذه الخطبة وتم زواجها به.

ولكن أبا قيس كان كثير التجوال ، صاحب سفر وترحال يقول عنه ابن سعد عن الواقدي :

" لم يكن أحد من الأوس والخزرج أوصف لدين الحنيفية ولا أكثر مساءلة عنها من أبي قيس بن الأسلت " ثم خرج إلى الشام وصحب معه زوجه كبشة ، وعلى أرض الشام شاهدت كبشة العيون الفوارة بالماء ، والحدائق الغناء ، والأنهار الجارية ، وحضارات الأمم ، وعادات الشعوب ، وكانت عينها الفاحصة تجس كل شيء ، وترصد كل منظر ، وتدقق في نعم الله التي لاتحصى ولا تعد .

ولقد نزلت هي وزوجها على آل جفنة: فأغدقوا عليهما الكثير ، ووصلوهما وكان زوجها يبحث عن الرهبان والأحبار ، ويسألهم عن خالق الأرض والسماء ، وموجد الحياة والموت ، وكان يطرق سمعها هذا الكلام فتقبله حيناً وتنفر منه أحياناً.

ولقد أرادهما الرهبان الدخول في دين المسيحية ولكنهما امتنعا.

وفي يوم من الأيام جاء إلى ساحتهما راهب وقال لهما إن كنتما تبحثان عن دين الحنيفية فهو من حيث خرجتما. وهو دين ابراهيم .

فعاد أبوقيس ومعه زوجته إلى مكة ، فطافا بالبيت وأديا مناسك العمرة والتقيا بزيد بن عمرو بن نفيل . أحد الحكماء في الجاهلية وابن عم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

عمرو بن نفيل: الذي جاهر بكراهة عبادة الأوثان ، وكان عدواً لوأد البنات لايعلم ببنت يراد وأدها إلا قصد أباها وكفاه مؤنتها ، فيربيها حتى إذا ترعرعت عرضها على أبيها فإن لم يأخذها بحث لها عن كفؤ فزوجها به ولقد رحب بهما عمرو ، وأكرم وفادتهما ، ودعاهما إلى عبادة الله وحده على شرع ابراهيم ، فاستجابا له .

ثم عادا إلى المدينة ، وبقي عمرو بين نفيل فيها ، ولقد رآه النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة ، وسئل عنه بعدها . فقال عليه السلام: " عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده " .

وفي المدينة سارت الحياة رتيبة بأبي قيس وزوجته ، وكان يجمع الناس ويدعوهم إلى الحنيفية ، فكانوا ينصرفون عنه ، فكان يقول:

" ليس أحد على دين ابراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو ، وكان يذكر صفة النبي - صلى الله عليه وسلم وكان يبشر بهجرته إلى يثرب .

وجاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعه صاحبه أبو بكر إلى المدينه بعد رحلة شاقة مضنية وكان الاستقبال لهما رائعاً والحفاوة بمقدمهما كبيرة . وتوافد أهل يثرب إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم يستمعون إلى كلمات الوحي المتتابع على خاتم النبيين وسيد المرسلين وحرص أبوقيس على حضور مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - خارج المسجد وداخله . فإذا عاد إلى بيته القى على مسامع زوجته كبشة آخر مانزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيكون لهما دستوراً في حياتهما يستظهران آياته ، ويأخذان أنفسهما بأوامره ، ويجتنبان نواهيه .

وفي يوم من الأيام ألقى أبوقيس على مسامع زوجته كبشه قول الله تعالى ﴿ المال والنبون زينة الحياة الدنيا ﴾ (١)

لقد رزقهما الله المال الوفير ، ورزق زوجها من زوجته السابقة إبناً ، وتمنت أن يكون لها أبناً من زوجها أبي قيس ، نعم ابناً يجمل حياتها ، ويزين أيامها ، ويملأ قلبها بالحياة والأمل .

ولكنها لم ترزق بالولد ، وإرادة الله ومشيئته غالبة ، عندها صبرت واستسلمت لقدر خالقها ومولاها وتمتمت بينها وبين نفسها بقول الله تعالى : ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ (٢)

عندها طلبت كبشة من زوجها أن يأتي بابنه الذي يعيش في بيت أهل أمه إلى بيتها ، لتكون له أماً بعد فقد الأم ، وعاهدته أن تطعمه أشهى الطعام وتلبسه أجمل الثياب ، وترعاه كما ترعى نفسها ، وتحافظ عليه بنور عينيها .؟؟

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٤٦ .

(٢) سورة الجمعة آية رقم ٨ .

واستجاب الزوج لطلب زوجته كبشـه ، وجـاء الإبـن فمـلأ حياتهـا بالبهجـة والسرور ، واستراحت كبشة لذلك وآمنت أن ا لله تعـالى قـد عوضهـا بـابن زوجهـا خيراً كثيراً .

ولكـن في يـوم ليـس كمثلـه يـوم أحـس أبوقيـس أن جسـمه ثقيـلاً ، وقدمـاه عاجزتان عن حمله إلى مجلس الرسول - صلى ا لله عليه وسلم - إنه مرض الشيخوخة ومقدمات الموت .؟؟

وحـزن حزنـاً كثـيراً لذلـك ، وأخـذت زوجـه في التخفيـف عنـه والتطبيـب لأوجاعه ، ولكنه كان يحس إحساساً صادقاً بدنو أجلـه ، وكـان يقـول لهـا: ياكبشـة لكل بدية نهاية ، ولكل ليل صباح ، ولكل سافرة حجاب ولكل أجل كتـاب ، وأنـا لا أشك أن أجلي قد اقترب ، فإن لم يأتني غداً فهو لاشك واقع بعد غد .

ثم أخذ نفساً عميقاً وتابع حديثـه قـائلاً : وأنـا لاأخـش المـوت ، ولا ترهبـني سكراته ، ولا يمكنني الفرار منه لأن ا لله تعالى يقول: ﴿ قـل إن المـوت الـذي تفـرون منه فإنه ملاقيكم ﴾[1]

وإنما الذي يقلقني ياكبشة هو ابني وأخش عليه تقلبات الأيام ومفاجآت الليالي.

فكانت تطمئنه بأنه في رعاية ا لله وعنايته ، وهو منها في سويداء القلب وحبـة العين ، لأنه الذكرى الغالية الباقية لي منك.

وما كادت كبشة تكمل حديثها ، حتى فاضت روحه إلى بارئها.

مات أبوقيس ، وما كادت جثته توارى تحت التراب ، حتـى قـام ابنـه حصـن فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ، ثم تركها فلم يقربهـا و لم ينفـق عليهـا ، يضارهـا لتفتدي منه بمالها ، فأتت كبشة إلى رسول ا لله - صلى ا لله عليه وسلم فقالـت:

" يارسول ا لله ، إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحي ، وقد أضرَّ بـي وطـوّل عليّ فلا هو ينفق عليَّ ، ولا يدخل بي ، ولا هو يخلي سبيلي .

فقال لها رسول ا لله - صلى ا لله عليه وسلم :

---

(١) سورة الجمعة آية رقم ٨ .

" اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر ا لله "

قال: فانصرفت ، وسمعت بذلك النساء في المدينة ، فأتين رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم – وقلن : مانحن إلا كهيئة كبشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو الأعمام فأنزل ا لله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ﴾[١]

حرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الذي كانت تسامه المرأة ، ويتخذ أداة للاضرار بها . وجعل للمرأة حريتها في اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافاً . بكراً أم ثيباً ، مطلقة ، أو متوفى عنها زوجها وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال. قال تعالى :

﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهو شيئاً ويجعل ا لله فيه خيراً كثيراً ﴾[٢]

(١) سورة النساء آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٩ .

أسباب النـــزول

عن ابن عباس – رضي ا لله عنهما –قال في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾

" كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شـاء بعضهـم تزوجهـا وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ،وهم أحق بها من أهلهـا فـنزلت هـذه الآية في ذلك "(١)

وقال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية ، وفي أول الإسلام إذا مـات الرجـل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فـألقى ثوبـه علـى تلـك المـرأة فصـار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء أن يتزوجها بغير صـداق إلا الصـداق الـذي أصدقها الميت ، وإن شاء زوجهـا غـيره وأخـذ صداقهـا و لم يعطهـا شـيئاً ، وإن شـاء عضلها وضارَّها لتفتدي منه بما ورثت من الميت ، أو تموت هي فيرثها .

ومن ذلك أن أبا قيس بن الأسلت الأنصاري توفى وترك أمرأتـه كبيشـة بنـت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها يقال له : حصن ، وقال مقاتل: اسمه قيس بـن أبي قيس ، فطرح ثوبه عليهـا فـورث نكاحهـا ، ثـم تركهـا فلـم يقربهـا ، و لم ينفـق عليها. يضارها لتفتدي منه بما لها ، فـأتت كبيشـة إلى رسـول ا لله – صلـى ا لله عليـه وسلم – فقالت:

" يارسول ا لله ، إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحي ،وقد أضـرَّ بـي وطـوَّل عليَّ ، فلا هو ينفق عليَّ ولا يدخل بي ، ولا هو يخلي سبيلي ."

فقال لها رسول ا لله – صلى ا لله عليه وسلم :

" اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر ا لله "

قال: فانصرفت ، وسمعت بذلك النساء في المدينة ، فأتين رسول ا لله صلى ا لله

---

(١) راجع الدر المنثور ٢:١٣١ وتفسير الطبري ٨:١٠٤ وتفسير القرطبي ٥:٩٤ ورواه البخـاري في التفسـير عـن محمـد بـن مقـاتل ، ورواه في كتاب الاكراه عن حسين بن منصور ، كلاهما عن أسباط .

عليه وسلم – وقلن:

" مانحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ، ونكحنا بنو العم فأنزل الله تعالى هذه الآية ."[1]

وأخرج الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والبيهقي في سننه عن عدي بن ثابت الأنصاري قال:

" توفي أبوقيس بن الأسلت ، وكان من صالحي الأنصار ، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت:

" إنما أعدك ولداً وأنت من صالحي قومك ، ولكن آتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأستأمره . فأتت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت: " إن أبا قيس توفي .

فقال لها: خيراً .

قالت: وإن ابنه قيساً خطبني ، وهو من صالحي قومه ، وإنما كنت أعدُّه ولداً فما ترى .. ؟

قال: ارجعي إلى بيتك فنزلت هذه الآية :

﴿ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء ﴾ قال البيهقي: مرسل.[2]

وقال ابن جرير عن عكرمة:

" نزلت في أبي قيس بن الأسلت ، خَلَفَ على أم عبيد بنت صخرة ، كانت تحت الأسلت أبيه ، وفي الأسود بن خلف ، وكان خَلَفَ على بنت أبي طلحة بن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار ، وكانت عند أبيه خلف ،وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف ، فَخَلَفَ عليها صفوان بن أمية ، وفي منظور بن رباب ، وكان خَلَفَ على مليكه ابنة خارجة وكانت عند أبيه رباب بن سيار ".[3]

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي ص١٤٠ .

(٢) راجع الدر المنثور ٢:٢٣٩ ط دار الكتب العلمية .

(٣) المصدر السابق ٢:٢٣٩ .

تذييـــــــل

كانت المرأة في القرون الغابرة في وضع لايليق بها كأنسانة ، لأنها في تصور أكثر الشعوب - في تلك العهود - تعد أصلاً لكثير من الشرور ، ومنبعاً للآثام والخطايا.

ويطيب لنا في هذه الكلمة أن نستعرض بعض هذه المعتقدات قبل نزول آخر الرسالات السماوية إلى دنيا البشر .

فالمرأة في شريعة " مانو " عند الهنود خادمة مسخرة لتلبية رغبات الزوج أو الأب، لاتملك حق التصرف ، أو إبداء الرأي فيما يتعلق بشئون الحياة .

فإذا مات زوجها أحرقوها حية ودفنوها معه . وبقيت هذه الجريمة النكراء سارية في تلك البلاد إلى وقت قريب من هذا القرن.

ويتساءل المرء أين عاطفة البنوة وصلة الرحم ..؟ وكيف سمح الأبناء والبنات بحرق أمهم حية أمام أعينهم ، ودفنها مع زوجها الذي مات موتة طبيعية..؟

إن الكثير من الحيوانات العجماوات يتعففن عن مثل هذه الجريمة النكراء ، فكيف سمح بها الإنسان الذي كرمه ربه ، وفضله على كثير من خلقه ..؟

وفي شريعة " حمورابي" تعتبر المرأة سائمة لافرق بينها وبين بقية الحيوانات السائمة، وإذا قتل رجل - عن طريق الخطأ - إبنة رجل آخر فعلى القاتل أن يسلم ابنته إلى ولي المقتولة ، ليقتلها أو يسترقها مدى الحياة حسبما يعنُّ له.

وكذلك كانت المرأة عند دولة اليونان والرومان . ويقول " كانو " مشرع الرومان: إن قيد المرأة لاينزع ونيرها لايخلع ، وكانت محط احتقارهم وسوء ظنونهم . فإذا خرجوا للحرب ، طوقت المرأة بما يسمى " حزام العفة " حتى لاتكون مطمعاً لشهوات الرجال ونزواتهم.

وكانت المرأة عند اليهود والنصارى تعتبر أصل الشرور ومنبع الخطيئة ، وهي نجسة وخاصة في أيام حيضها ، ومن لامسها يكون نجساً سبعة أيام ، وهي عندهم سبب خروج آدم من الجنة ، فهي التي أغرته بأكل التفاحة " الشجرة المحرمة " وهي

سبب اللعنة الأبدية التي نزلت بآدم وذريته .

ففي التوراة المحرفة ، في الإصحاح الثالث من سفر التكوين جاء مايلي: " وكانت الحية أصل الحيوانات البرية ، فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لاتأكلا من كل شجرة الجنة ..؟

قالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل ، أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها ، ولا تمساها لئلا تموتا .

فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونا كالله عارفين الخير والشر .

فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل وانفتحت أعينهما، وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة .

فنادى الرب الإله آدم وقال له :

أين أنت .. ؟

فقال له : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان واختبأت؟

فقال: من أعلمك أنك عريان ..؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لاتأكل منها ..؟

فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة ؟؟

فقال الرب الإله للمرأة : ماهذا الذي فعلت..؟

فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت ؟؟

فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جموع الوحوش البرية ، على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة ، وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك ، وأنت تسحقين عقبه".

وهذه الأضاليل والمفتريات يخلو منها كتاب الله تعالى الذي أنزله ليكون خاتماً للكتب السماوية ، وحفظه من التحريف والتبديل قال الله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1]

ويقول تعالى عند ذكره لقصة آدم وحواء :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى ، وإنك لاتظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى، فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾[2]

وقال أيضاً:

﴿ وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[3]

فالمرأة ليست سبباً للخطيئة ، وليست هي التي وسوست لآدم ولكن هي وزوجها كانا هدفاً لوسوسة الشيطان . والخطيئة في منهج الإسلام فردية والتوبة فردية ، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة ، وليست هناك تكفير لاهوتي وإنما خطيئة آدم شخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة .

﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾[4]

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٩ .

(٢) سورة طه الآيات من ١١٥-١٢٢.

(٣) سورة البقرة الآيات من ٢٥-٢٧.

(٤) سورة طه آية رقم ١٢٢ .

وليست المرأة شيطاناً كما يقول القديس " بونا " الذي كان يقول لتلاميذه:

" إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم رأيتم كائناً بشرياً "

" وإذا رأيتم امرأة فلا تظنوا أنكم رأيتم كائناً وحشياً "

" إنما الذي ترون هو الشيطان بذاته " .

أين هذا من قول الله تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[١]

وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم :

" النساء شقائق الرجال "[٢]

من هذا نرى أن الإسلام قد كرم المرأة وأعلى من شأنها لأنها هي الأم الذي قال عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم :

" الجنة تحت أقدام الأمهات " [٣]

وعندما جاءه أحد الصحابة وقال له: يارسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة..؟

قال الرسول - صلى الله عليه وسلم: أمك .

قال ثم من ..؟

قال: أمك .

قال: ثم من ..؟

قال: أمك.

قال: ثم من ..؟

قال: أبوك ."[٤]

---

(١) سورة الروم آية رقم ٢١ .

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عائشة - رضي الله عنها ، ضعفه الترمذي وحسنه بعضهم .

(٣) الحديث رواه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم عن معاوية بن جهامة .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ٢ ومسلم في البر ٤ وابن ماجة في الوصايا ٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢:٣٢٧ ، ٣٩١ (حلبي).

ويقول ا لله سبحانه وتعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾[1]

وهي زوجة: تعامل بالرفق واللين يقول الرسول - صلى ا لله عليه وسلم: رفقاً بالقوارير يا أنجشه ".

والزوجة ستر ووقاية لزوجها. وهو كذلك قال تعالى :

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[2]

وهي أبنة يقول الرسول - صلى ا لله عليه وسلم:

" من رزق من البنات بشئ فأحسن إليهن وأدبهن كن له ستراً من النار "[3]

وعن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول ا لله - صلى ا لله عليه وسلم يقول: " من كان له ثلاث بنات ، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة ". [4]

وهي مؤمنة قانتة قد أعد ا لله لها مثل ما أعد للمؤمنين والقانتين لافرق في ذلك بين ذكر وأنثى . قال ا لله تعالى :

﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[5]

العمل الذي يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكير والتدبر والذكر والاستغفار والخوف من ا لله والتوجه إليه بالرجاء مقبول من الجميع ذكرانا واناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس فكلهم سواء في الإنسانية ولهذا يقول ا لله تعالى :

---

(١) سورة الاسراء الآيتان ٢٣-٢٤.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٧.

(٣) رواه الإمام مسلم في كتاب الأدب .

(٤) رواه ابن ماجة في كتاب الأدب ٣ باب بر الوالد والاحسان إلى البنات رقم ٣٦٦٩.

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٩٥ .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾[١]

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿ إن المسلمين والمسلمات والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾[٢]

وهي مساوية للرجل في الحقوق والواجبات ، ولها كامل الحرية في التصرف في مالها .

يقول الاستاذ العقاد :

" ومعاملة الحقوق دستورها الجامع أن الرجل والمرأة سواء في كل شيئ ، وأن النساء لهن ماللرجال ، وعليهن ما عليهم بالمعروف ثم يمتاز الرجال بدرجة هي درجة القوامة التي تثبت بتكوين الفطرة وتجارب التاريخ وليس في هذا الإمتياز خروج على شرعية المساواة حين تقضي المساوة بين الحقوق والواجبات ، وكل زيادة في الحق تقابلها زيادة مثلها في الواجب فهي المساواة العادلة في اللباب " .

هذا وبالله التوفيق ...

---

(١) سورة النحل آية رقم ٩٧.

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٥ .

وقفـــــة
مع حفيـــدات الأنصار بالمدينة

عبر رحلة مقدارها ألف ميل قطعتها السيارة بنا إلى مسجد الرسول صلى ا لله عليه وسلم اتجه فكرنا إلى رحلة أخرى متأنية عبر التاريخ حيث هجرة الرسـول صلـى ا لله عليه وسـلم متخيـلاً المواقـف الجياشـة ، والبـذل السـخى الـذى قـام بـه الأنصـار ، وأبناؤهم ، ونساؤهم إزاء إخوانهم المهاجرين .

وتمادى الحنين الطاغى لدينا ، واللهفة الصادقة لرؤية الأرض الطيبة فجسم أمامنا صور الاستقبال الحار ، والحفاوة البالغة ، التـى قـام بهـا هـؤلاء الرجـال للرسـول وصحبه ، حتى كأن هذه الصور حاضرة شاهدة أمـام أعيننـا ، إن مـا فعلـه الأنصـار يكاد يكون فريداً ليس له نظير فى دنيا الناس ، لقد تسـابقوا إلى إيـواء المهـاجرين ، والترحيب بهم ، حتى ليذكر التاريخ أنه لم ينزل مهاجر فى بيت الأنصار إلا بقرعة ، لأن عـدد الراغبـين فـى الإيـواء المتزاحمين عليـه مـن الأنصـار أكـثر بكثـير مـن عـدد المهاجرين الفارين بدينهم .

ولقد سجل القرآن الكريم هـذه المواقـف الصادقـة ، والعاطفـة النبيلـة ، والإيثـار الكبير بقوله تعالى :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هـاجر إليهـم ولا يجـدون فى صدورهم حاجة مما أتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ﴾[1] .

و لم يكتف الأنصار بما قدموه من بذل وإيثار ، ولكنهم كانوا دائما فى الصفوف الأولى فى المعارك التى خاضها الإسلام يشدون أزر إخوانهم ، ويدفعـون عـن نبيهـم

---

(١) سورة الحشر آية رقم ٩

ويحملون مبادئ الدين ، وتعاليم الإسلام إلى الاصقاع البعيدة ، والبلاد النائية حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم بعد إحدى المعارك مخاطباً الأنصار :

" فو الذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار " .

نساء الأنصار

و لم تكن نساء الأنصار أقل من الرجال سواء فى استقبال هؤلاء المهاجرين أو التزامهم بأوامر الدين ، وطاعتهم لكل ما جاء به القرآن الكريم أو أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم وكتب السنن والتاريخ خير شاهد على ذلك .

عن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ قالت :

فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة :

إن لنساء قريش لفضلاً وإنى و لله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله وإيمانا بالتنزيل ، لما نزلت فى سورة النور : ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾[1] انقلب رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، يتلو الرجل على امرأته وبنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرجل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات كأن على رؤسهن الغربان .

---

(١) سورة النور آية رقم ٣١

الاستجابة الفورية

لقد تلقت نساء الانصار هذا الأمر وقلوبهم مشرقة بنور ا لله سبحانه وتعالى ، لم يتلكأن فى الطاعة ، و لم يخالفن أمر ربهن ، بل سارعن كما يسارع الجندى فى سكنته أو فى ميدانه لتنفيذ أمر القائد .

ليست الاستجابة الفورية لأمر ا لله فحسب ، ولكن نساء الأنصار كن حريصات على التفقه فى دينهن ، ومعرفة أوامر ربهن ، أوامره فى الصغيرة والكبيرة وفى كل شأن من شئون الحياة .

حسن السؤال

ولقدذهبت أسماء بنت بن السكن الأنصارية إلى مجلس الرسول صلى ا لله عليه وسلم وقالت :

" يا رسول ا لله إنى رسول من ورائى من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولى وعلى مثل رأيى : إن ا لله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال وحاملات أولادهم ، وان الرجال فضلوا بالجمعات ، وشهود الجنائز ، والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا أولادهم أفنشاركهم فى الأجر ؟ " .

فالتفت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه فقال :

" هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ " .

قالوا : بلى وا لله يا رسول ا لله .

فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : انصرفى يا أسماء واعلمى من ورائك من

النساء إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يعدل ما ذكرت للرجال .

فانصرفت أسماء وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نساء مجاهدات

وعندما كان يدعو داعى الجهاد كن يتسابقن إليه لتضميد الجرحى ، وارواء العطشى ، وتحريض الرجال ، والاشتراك فى القتال إن لزم الأمر ، كما فعلت أم عمارة المجاهدة الصابرة ، والتى جلست بعد معركة أحد تروى لمن لم يحضرن المعركة من نساء الأنصار ما حدث فيها فقالت :

" انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عنه بالقوس حتى خلصت الجراح إلىّ " .

تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع :

فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور فقلت لها من أصابك بهذا ؟ قالت : ابن قمئه أقمأه الله . ولما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول : دلونى على محمد لا نجوت إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأنا ممن ثبتوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان ، مرحى يا أم عمارة ، هنيئاً لك جنة الخلد ، وشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بقوله :

" ومن تطيق ما تطيقين يا أم عمارة " .

نساء عابـــدات

وأخرجنا من تأملاتنا هذه وصولنا إلى مدينة الرسول صلى ا لله عليه وسـلم عندمـا لاحت أمام أعيننا مآذنه العملاقة وكأنها طريق معبد ينقل المصلـين مـن ترابيـه الأرض إلى شفافية السماء .

ولقد رأينا حفيدات الأنصار فى مدينة الرسول حفيدات عبادة بن الصامت وسعد بن الربيع ، وأسيد ين حضير ، وغيرهن ، حفيدان خنسـاء بنـت خـدام التـى أنـزل ا لله بشأنها تشريعاً وحكماً ، وحفيدات حميدة الأنصارية التى تحب الرسـول صلـى ا لله عليه وسلم وتحب الصلاة معه والذى بهر عقولنا وأعادنا إلى مجـد الإسـلام وعـزه رؤيتنا هؤلاء الحفيدات وهن يتسابقن إلى الصلاة ، ويسرعن الخطا إلى مسجد الرسـول صلى ا لله عليه وسلم ليس هذا التسابق فى صلاة المغرب أو العشاء فقط ، أو صـلاة الظهر والعصر فحسب ، ولكـن أكـثر مـا يكـون ذلـك فـى صـلاة الفجـر ، حيـث الاغفاءة الطويلة والنوم العميق ووعورة الطريق وغبش الظلام .

ولقد رأينا أعداداً كثيرة ، وألوفاً مؤلفة حتى يخيل إليك أنه لم تبق فى بيوت المدينة امرأة لم تسع إلى الصلاة ، ولم تلب داعى ا لله .

والسؤال الذى نطرحه ونوجهه إلى بناتنا وأخواتنا فى العقيدة :

لماذا تحاولن تغيير زيكن الإسلامى ...؟؟ وتقلـدن قومـاً لا يخـافون ا لله ولا يخشـون عقابه ...؟؟ وكان لما أخذن أنفسهن به من تـبرج وعـرى أسـوأ الأثـر علـى سـلوكهن وأخلاقهن وتفتيت أسرهن ... ؟؟ وإذا كانت هذه الظاهرة ، ظاهرة تقليد الغرب فـى زيه ومظهره ، قد انتشرت بين بعض النساء فى بلادنا الإسلامية فإننا نرجـو مـن ا لله سبحانه وتعالى أن يحمى لنا هذا البلد الطيب الآمن من هذا الوباء .

ومما يلفت النظر ويدعو إلى الإعجاب أن كثيرا من النساء فى بعـض بلـدان العـالم على الرغم مما حل بها من كوارث ، وما نزل بساحتها من دمـار وتخريـب لا زالـت

تحتفظ بمظهرها الإسلامى وزيها .

فما بال بعض النسوة فى البلاد العربية يرى فى تقليد المرأة الغربية المعاصرة صورة من صور التقدم التى تتطلبها وتسعى إليها ... ؟؟

مجتمع إسلامى متكامل

إن الستر وحجب مفاتن المرأة أمر من الله سبحانه وتعالى :

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾[1] .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى فلا مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد .

(١) سورة النور آية رقم ٣١

ثبت بالمراجع

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى ـ ط : المكتبة السلفية .

٣ـ صحيح الإمام مسلم للامام إبى الحسن مسلم بن الحجاج ـ ط : رئاسة ادارة البحوث الإسلامية ــ الرياض.

٤ـ سنن أبى داود للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانــى ـ ط : دار الفكر ـ مصر

٥ـ سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى ـ ط : دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان .

٦ـ سنن الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ابن ماجة ـ ط : عيسى البابى الحلبى وشركاه ــ مصر .

٧ـ مسند الامام أحمد بن حنبل ـ ط : دار الفكر العربى ـ مصر .

٨ـ شرح السنة للامام البغوى تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط ــ ط: المكتب الإسلامى ــ بيروت

٩ـ مفتاح كنوز السنة وضعه باللغة الانجليزية الدكتور أ .ى فنسنك ونقله إلىالعربية محمد فؤاد عبد الباقى ـ ط : ادارة ترجمان السنة .

١٠ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق علىمحمد البجاوى ــ ط : نهضة مصر ومطبعتها الفجالة مصر .

١١ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ ط : دار بيروت للطباعة والنشر .

١٢ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة .

١٣ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ـ ط : مكتبة المعارف ـ بيروت .

١٤ـ سنن الترمذى للامام الترمذى ـ ط : دار الفكر بيروت .

١٥ـ سنة الله فى عقاب الأمم فى القرآن الكريم ـ ط : دار المعراج الدولية للنشر .

١٦ـ الحجاب : أبو الأعلى المودودى ـ ط مؤسسة الرسالة .

١٧- شبهات حول الإسلام للاستاذ محمد قطب ـ دار الشروق .

١٨- المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء تأليف الشيخ محمد محمد المدنى ـ ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

١٩- قصص القرآن لمجموعة من المؤلفين ـ ط : عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٢٠- قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للنيسابورى ـ ط : دار الفكر الإسلامى للطبع والنشر بدمشق .

٢١- فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ـ ط: دار الشروق .

٢٢- مشاهد القيامة للمرحوم سيد قطب ـ ط : دار الشروق .

٢٣- الإسلام ومشكلات الحضارة للمرحوم سيد قطب ـ ط : دار الشروق .

٢٤- الإسلام بين المادية والإسلام للاستاذ محمد قطب : دار الشروق .

٢٥- فى النفس والمجتمع للاستاذ محمد قطب : دار الشروق .

٢٦- الاختلاط بين الجنسين فى نظر الإسلام للاستاذ محمود عبد الكريم خيال .

٢٧- سيرة ابن هشام تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ ط: حجازى بالقاهرة .

٢٨- المرأة فى القرآن عباس محمود العقاد ـ ط : دار الهلال : القاهرة .

٢٩- الزواج والطلاق فى الإسلام د/ذكى الدين شعبان ـ ط : الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة

٣٠- تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ـ ط : دارالمعارف ـ القاهرة .

٣١- أسباب النزول للواحدى تحقيق سيد صقر ـ ط : مجمع البحوث ـ القاهرة .

٣٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ ط : دار المعرفة ـ بيروت .

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله ،،،،،